/

المقبرة البيضاء

رواية.

أحمد محمد زغب

((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور))

القرآن الكريم سورة الملك آية2

السيارة (بيجو 404)تسير ببطء وعناء في شوارع المدينة، تتجه رويدا رويدا إلى الجنوب حيث الطريق المؤدية إلى منطقة (عميش) بقراها ومد اشرها وواحاتها المطوقة بكثبانها الشاهقة . الشاب سعيد يجلس على المقعد الخلفي للسيارة الهرمة ، وهي ترتج به على جوانب الطريق المتآكلة ، يتأمل في كل ما حوله ...مقاعد السيارة الممزقة المهترئة ، خاله صالح الذي يقود السيارة ، رجل في سن الأربعين ، يلبس معطفا رثا وعمامة صغيرة صفراء ، ويضع على عينيه نظارة طبية ، ويبدو مكدودا ذاهلا ، يرسل بين الفينة والأخرى تنهيدة حارة . وخاله محمد الذي يجلس على المقعد الأمامي ، يتقي برد الشتاء بقشابية جديدة من الصوف البني ، يحاول أن يقطع الصمت المخيم داخل السيارة إذ لا تكاد تسمع غير شكشكة القطع الحديدية ترتج على قاعدة السيارة الهرمة .

غير أن ما يشد انتباهه ، هذه البطانية المخملية الحمراء ..إنها ملفوفة إلى جانبه على المقعد الخلفي، تثير في نفسه شتى المشاعر ، وتملي عليه جم الخواطر ... البطانية تلف جثة الطفل بشير الذي أسلم الروح هذا الصباح في مستشفى المدينة بعد مرض ألم به منذ مدة طويلة .

كان الطفل بشير يبلغ من العمر سنتين ، وكان الولد الذكر الوحيد لصالح ؛ فقد رزقه الله ثلاث بنات :

سمية الكبرى ، حبيبة الوسطى ، وعائشة الصغرى ، وقد سمى صالح ابنه هذا على اسم والده الحاج بشير الذي توفي قبل مولد الطفل بسنة واحدة ، كان صالح يحب ابنه بشير حبا جما ملأ عليه حياته ، لأنه الذكر الوحيد ، ولأنه أصغر أبنائه ، ولأنه أسماه على والده .

و لم يتح للأب أن يرزق هذا الولد الذكر إلا بعد سنوات ثقيلة من القلق والانتظار والدعاء ،والتوسل بأولياء الله الصالحين لهذا كان يحبه حبا جما ملأ عليه قلبه ومشاعره ، فكان يكثر من الحديث عنه في مجالسه، ويناديه ((أبي)) مبالغة في تدليله .

الشاب سعيد بنظر إلى البطانية المخملية الجديدة، الملفوفة، وينتابه شعور غريب وغامض ...لعله لو كان واضحا ما كان يحز في نفسه ويؤلمه كل هذا الألم . ينظر إلى البطانيه ويسائل نفسه ترى لو كان الطفل على قيد الحياة هل كانت ستذوع منه هذه الرائحة الذكية ؟ إنه كان يعرف الطفل جيدا قبل موته و متأكد من أنه لو كان حيا ما كان يلقى كل هذه العناية .

يلتفت إلى اليسار تارة، يلقي نظرة إلى جانب الطريق حيث سيصلون إلى مقبرة أولاد حمد وينظر تارة أخرى إلى البطانية يحدق فيها مليا وكأنه يريد أن يستلهم منها مزيدا من العبر أو يستوضح منها الشعور الغامض الذي ينتابه ، بدا له زقاق ضيق ينتهي بسور المقبرة ، توقع أن يتمهل خاله في السير ، ثم ينعرج إلى اليسار،ويدخل إلى الشارع الواسع الذي يؤدي إلى باب المقبرة ، لكنه لم يتمهل ولم ينعرج ففهم، ولكنه قال متثبتا :

- إلى البياضة ؟؟

أجابه صالح بنبرة أحس منها أن سؤاله يبدو سخيفا:

-طبعا..

وفي الوقت نفسه رأى محمدا يومئ رأسه بالإيجاب .

عاد إلى ذاكرته حادث وفاة جده الحاج البشير قبل ثلاث سنين ، عندما سمع بوفاته توجه رأسا إلى القرية التي يسكنها ،ركب سيارة أجرة إلى هناك، نظر إليه السائق مستطلعا ،لأنه يعرف كل ركاب

السيارة ،فسعيد هو الغريب الوحيد بينهم، سأله سائق السيارة متثبتا :
ـ إلى النخلة؟
ـ نعم.
وهنا تذكر السائق وفاة الحاج البشير في ذلك اليوم فأضاف:
ـ أ ذاهب إلى بيت الحاج بشير؟
ـ نعم
ـ هل هو قريبك ؟
ـ إنه جدي .
كانت علامات التذمر من أسئلة السائق المتتالية بادية على وجه سعيد بوضوح ، أهل القرى طيبون لكنهم يزعجون الإنسان بأسئلتهم الفضولية.
سأل السائق بعد فترة صمت لم تطل :
ـ ترى أين سيدفنونه؟
ـ ألا توجد مقبرة في النخلة؟
ـ توجد ولكن ..
ـ لكن ماذا ؟
ـ إنها مقبرة صغيرة .. وليست ذات شأن ..
ـ حتى المقابر منها ذات الشأن ومنها..
أجاب الرجل مستدركا بعد أن لاحظ حيرة سعيد محاولا أن يعطي تأويلا لكلامه فأخفق:

ـ إنها مقبرة صغيرة يدفن فيها الأطفال الصغار و..
ثم أومأ إيماءة تدل على عدم الاكتراث.
وفي ذلك اليوم علم سعيد أن جده الحاج البشير سيدفن في مقبرة البياضة .
جالت في ذهنه خواطر عديدة وهو يركب المقعد الخلفي للسيارة المتجهة إلى مدينة البياضة التي تبعد عن المدينة: الوادي بحوالي ثمانية كيلومترات.
لماذا يهتم الناس بموتاهم ؟ماذا يهم أن يدفن الميت في أية مقبرة مهما كانت وقد مات .ولماذا يهتم الناس باختيار مقابر دون أخرى وأماكن دون أخرى ليدفنوا فيها ؟ كثيرا ما كان يسمع أن فلانا أوصى بأن يدفن في مقبرة كذا بعد أن يموت وفلانا كذلك وفلانا أيضا وفلانا...ومقبرة البياضة بالذات نالها حظ وفير من الوصايا من هذا النوع... أي شيء يعطي مقبرة البياضة هذه القداسة ؟ ليست مقبرة البياضة هي الوحيدة التي يضفي عليها الناس هذا النوع من القداسة . شيء غريب يجعل الناس يهتمون بقبورهم ، ربما أكثر مما يهتمون ببيوتهم
يقال إن الأهرام قبور الفراعنة فأين قصورهم التي كانوا يسكنونها ؟ لا شك أن الزمن عفا عليها . كيف عفا الزمن على القصور ولم يعف على القبور؟ أجل.. كان الفراعنة يهتمون بقبورهم أكثر مما يهتمون بقصورهم .
لا شك أن أشياء كثيرة تضفي على مقبرة البياضة شيئًا من القداسة ، فهي تسمى أيضا مقبرة سيدي العيد ، يقال إنه

ولي صالح ، ويوجد بالقرب منها جامع هذا الشيخ ، ثم إن البياضة نفسها من أقدم المناطق المأهولة في هذه الجهة ، لذا فقد استقر في تربتها كثير من أجدادنا الأقربين ، ولأن كل واحد منا يفضل أن يدفن قرب أبيه أو أخيه أو جده، ولكن لماذا؟

أتراهم يريدون أن يستأنسوا في قبورهم بوجود آبائهم أو أجدادهم أو غير ذلك ممن يمتون لهم بصلة القرابة ، وإذا كانوا يمنون أنفسهم بالتلاقي في العالم السرمدي... في الجنة، وإذا كانوا يؤمنون بلقاء الأرواح التي تنفصل عن الأجساد لتحلق في ملكوت الله فما قيمة الأجساد الصماء؟ لماذا يصرون أن يقترب بعضها من بعض؟ أم ترى أن أرواحهم تبقى ترفرف حول أجسادها ؟أم ترى أن الأجساد محسوسة ملموسة،لهذا فهم يؤمنون بها أكثر من الأرواح التي هي علم غيب يسبح في عالم الغيب .
ومهما كان السبب فصالح مصر على أن يدفن ابنه بشير قرب والده الحاج بشير وفي مقبرة البياضة غير بعيد عن سيدي العيد وسيدي سالم وغيرهما من أولياء الله الصالحين الذين يجعلون البركة تحل على النائمين في هذه المقبرة المقدسة.

*بلدية البياضة ترحب بكم * لافتة على جانب الطريق.

ـ ها قد وصلنا أخيرا .

خيل إليه وقد خرج من خضم الخواطر المكثفة ..أنه لم يقطع ثمانية كيلومترات وإنما قطع ثمانين كيلومترا .

☆ ☆ ☆ ☆

2

مدينة البياضة ككل القرى والمدن المتواجدة في منطقة سوف، المساكن فيها متزاحمة على غير نظام ، يشقها الطريق الولائي المؤدي إلى قرى ومداشر أخرى.بناياتها يغلب عليها الطابع المحلي،منازل تقليدية مبنية بالجبس،على بعضها القباب المستديرة، وتزين الأقواس بعضها الآخر ، يجد الزائر بعض المفارقات بين هذه

البنايات التقليدية التزاحمة ، وبين بعض العمارات العالية القليلة ذات الشرفات الأنيقة،التي تزين جنبات الطريق في بعض أنحائه، والتي تشمخ متحدية ، وكأنها تقول في عناد وكبرياء ...علام يدل وجودي هنا في هذه المدينة المغمورة في الكثبان والصحارى؟ ألا يدل على أن الإنسان تحدوه رغبة ملحة في البقاء والخلود؟

إنها عمارات مصممة بعناية تصرخ بأن الإنسان متشبث بالحياة إلى أقصى حد ،فهي ملك لأشخاص أفنوا أعمارهم في الكسب والاكتساب والبناء والتعمير ، لعلهم نسوا النهاية الحتمية التي تنتظرهم ، أو التي يسعون إليها ويقتربون منها يوما عن يوم . ولعلهم لو فكروا فيها واعتقدوها عقيدة راسخة لكان يكفيهم بناء منازل عادية من الجبس تقيهم عوادي الطبيعة ، تحميهم من لفحات حرها ولذعات قرها وكفوا أنفسهم كل هذا العناء.وسخروا جزءا من وقتهم ليوم الرحيل .

الإنسان يتشبث بالحياة حتى تظن أنه نسي الموت، بل تظن أنه يرفض الموت ، أما إذا تعلق الأمر بالموت ، فإنه يتصرف إزاءه تصرفا مضطربا غامضا غموض الموت نفسه، أمر لا بد منه لكنه عظيم الشأن ، لذا لا بد من عمل شيء، لا بد من اتخاذ بعض التدابير ولو كانت عشوائية .

الشعائر الدينية التي يزعم الناس أنهم يدخرون ثوابها إلى هذا اليوم المحتوم ، يغلب على بعضها الطابع الاجتماعي وعلى بعضها الآخر الطابع النفسي ، فلا تعدو

أن تكون هروبا من النقد الاجتماعي أو ركونا إلى الراحة النفسية . أما التفكير فيما بعد الموت ، فهو تفكير باهت لا يلبث الإنسان أن ينصرف عنه إلى المدركات الحسية أو العقلية الواضحة .

توقفت السيارة بمحاذاة المسجد، وترجل ثلاثتهم ، وقف الشاب سعيد ينظر حواليه، المقبرة محاطة بسور سميك مقام بعناية لحمايتها ، وهي توجد غربي الطريق المعبد،الذي تتلاحق فيه مواكب السيارات من المدينة وإليها، وشرقي الطريق يرتفع المسجد بصومعته العالية المزخرفة بنقوش فنية جميلة، ويحيط به سور مزدان بأعمدة حديدية خضراء، وفي باحته بضع غرسات من النخيل.

دخل ثلاثتهم المسجد ، عرجوا على المطهرة ليتوضئوا ، توجه الشاب سعيد أين وجد خاله محمدا قد سبقه إلى هنالك، فصلى ركعتين تحية المسجد ومد يديه داعيا أمام قبرين ، إنهما قبرا أولياء الله الصالحين، فرغ الثلاثة من صلواتهم وراحوا يطوفون بأنحاء المسجد يتبركون به، لاحظ الشاب سعيد أن المسجد مزخرف من الخارج، بصورة لافتة ، كأنما هذه الزخرفة تشعر الزائر بأنه ليس في مسجد عادي ، إنما يكتسي أهمية خاصة. وبدا له أن يقطع الصمت المطبق ، فقال:

ـ لماذا يدفن هؤلاء في فناء المسجد أليست المقبرة واسعة؟

وهنا لاحظ ارتباكا وامتعاظا على الرجلين فأضاف مستدركا :
ـ إن أولياء الله لهم مكانة رفيعة عند الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فأينما دفنوا فهم في الجنة بلا شك.
وهنا تكلم محمد بلهجة تحمل معنى التحدي :
ـ كان هذان الوليان العظيمان نائمين في هذا المكان قبل وجود المسجد ، فالمسجد موجود هنا من بركتهما وبفضل حلول جسديهما الطاهرين في هذا المكان .
رد سعيد مجاملا:
ـ هذا صحيح .
أخذوا أدوات الحفر من الصندوق الخلفيّ للسّيارة : الرفش والمسحاة ،والفأس . وبينما كان سعيد يحدق في البطانية التي لا تزال موضوعة على المقعد الخلفي للسيارة ، كان رفيقاه قد توجها نحو باب المقبرة. أخذ الفأس ولحق بهما بعد أن وقف وقفة قصيرة على جانب الطريق المعبد ، ينظر يمينا ويسارا إلى السيارات التي تمر من الجانبين على عجلة من أمر أصحابها الذين لا يلتفتون إلى اليمين حيث توجد المقبرة التي لا تخلو غالبا من بضعة أشخاص متفرقين في أرجائها يزورون موتاهم. ولا إلى المسجد حيث يرتفع الآذان لصلاة الظهر .
وصل سعيد إلى حيث سبقه كل من محمد وصالح اللذين عكف كل منهما يمدان أيديهما ويقر آن القرآن أو بعض

الأدعية ويجثوان على ركبهما ، يمسحان أيديهما على حجارة وتراب القبر . أغلب المقابر كتب عليها أسماء أصحابها وتواريخ وفاتهم ملحقة بعبارات الترحم والترجيع ...رحمه الله ...إناّ لله وإنّا إليه راجعون ....وراح يقرأ..

هذا ضريح الحاج بشير,,وهذا ضريح فلان وهذا ضريح فلانة ..وكان يجول بنظره في أرجاء المقبرة الواسعة..قبور مترامية هنا وهناك،،وفوضى عارمة ،،صفائح حديدية تحيط ببعض القبور ، وبعضها مبني بالجبس وأخرى بالأسمنت ، وأخرى تركت بدون بناء ، وضعت عليها الشواهد ؛ وهي حجارة متوسطة الحجم وضعت للتفريق بين قبري الرجل والمرأة؛وكأن التفريق بينهما ضروري حتى لو تعلق الأمر بعظام نخرة مدفونة في بطن الأرض .. قبر الرجل عليه شاهدان ، وقبر المرأة عليه ثلاثة شواهد، ...

زجاجات عطر هنا وهناك مترامية على القبور، الزائرون كثيرا ما يضمّخون قبور موتا هم بالعطر ، ربما لأن الأرواح ترفرف حول القبور ، أو لأن أصحاب القبور يشعرون بقدوم زائريهم لذا تعطر لهم هذه الأماكن . لفت انتباهه قبر مبني بعناية ومزدان ببضع قطع من الرخام اللماع ، لا بد أن يكون صاحبه من أهل المال أو الجاه. وهكذا تشاء الأقدار أن يكون من القبور ما هو مغمور ومنها ما هو مرموق، بالضبط كما أراد سائق سيارة الأجرة أن يقول ، حتى في مقابرنا يجب أن نفهم أن الناس ليسوا سواسية كأسنان المشط، ولعل هذا الميت يتباهى بقبره الأنيق على جيرانه من أصحاب

القبور المغمورة ،مثلما يتباهى أهل البنايات الشامخة على أصحاب البنايات الجبسية المتواضعة، وفي المباهاة والمفاخرة لذة ما بعدها لذة.

الزائرون الذين يؤمون المقبرة ، سرعان ما ينصرفون إلى المسجد أين ينام الأولياء حيث يطيب لهم المقام ويروق لهم الدعاء . أعدادهم قليلة ، متباعدون في أرجاء المقبرة الواسعة حتى أنهم لا يثيرون الاهتمام، فلا يكاد الزائر يشعر بوجود غيره في ذلك الصمت المطبق إلا من صفير الريح ومحركات السيارات التي تمر بين الحين والآخر في الطريق المعبد على جانب كبير من المقبرة .

غير أن تلك المرأة التي تقف أمام قبر وتجلس ثم تنصرف إلى باب المقبرة ،ثم تعود إلى القبر من جديد ، لو اقترب منها لرآها تبلل القبر بدموع غزيرة ، وحين تهم بالانصراف وتصل باب المقبرة تجهش بالبكاء وتعود إلى القبر من جديد ؛ تلك المرأة بحركاتها الغريبة ، وبلحافها الأسود اللافت للانتباه ، ينتصفه شريطان أبيض وأحمر وهو نوع غير مألوف عند أهل المنطقة ، غلب على ظن سعيد أن المرأة غريبة عن المنطقة، كانت تلك المرأة ترغم الزائرين على الانتباه إليها وربما مشاطرتها حزنها .

كان سعيد يمد يديه أمام قبر جده يقرأ الفاتحة، ويدعو لجده بالرحمة والمغفرة عندما قال صالح بعد أن أمسك بالرفش:

- ترى أين نحفر ؟

ـ هنا.
هكذا أجاب سعيد على الفور ، وهو يشير إلى موضع خال إلى جانب قبر جده.
أشار محمد إلى مكان آخر ، وطلب من أخيه أن يحفر فيه القبر الصغير. ولكن سعيدا تدخل مصرا على المكان الذي اقترحه وقال محتجا :
ـ هنا ..هنا ..ها هو مكان خال إلى جانب قبر جدي..
لكن محمدا لم يلق اهتماما لكلام سعيد بل تجاهله تماما وهو يقول لأخيه:
ـ ها هو مكان لائق قدر القبر الصغير ..احفر هنا .
ـ لكن ...
لكن صالحا لم ينتظر احتجاجه وشرع في عملية الحفر، وراح بدوره ينهش الأرض مساعدا خاله وهو يفكر ويتساءل بينه وبين نفسه،،لماذا يتجاهلان اقتراحه على وجاهته؟ ألا يريد صالح أن يرقد ابنه بشير ووالده الحاج بشير جنبا إلى جنب ؟ وبقي تساؤله يبحث عن تفسير .
استوت الحفرة في الطول والعمق ، وكان لابد أن يجيء إمام المسجد حتى
يكبروا أربعا خاشعين أمام جلال الموت ، داعين للطفل برحمة الله ولوالديه
بالأجر الحسن .

ذهب محمد يستطلع مجيء الإمام ، ومكث صالح مع ابن أخته سعيد يستكملان
تهيئة القبر،ثم وقفا ينتظران قدوم محمد، وكانا ينظران من حين لآخر إلى تلك
المرأة الغريبة.

نهضت المرأة من أمام القبر، وتوجهت نحو الباب ، ثم ألقت نظرة أخيرة إلى
القبر ورفعت عقيرتها:
ـ الله يرحمك الله يرحمك ..ويرحم التراب الذي ترقدين عليه ويرحم حتى
الطعام الذي كنت تأكلينه ! !
ابتسم صالح ابتسامة باهتة صفراء ... لقد فقدت المسكينة رشدها ،،،لم تعد
تعي ما تقول,..
خرجت من الباب متثاقلة الخطى وغابت عن الأنظار .
عاد محمد محملا بدلوين كبيرين مملوءين بالماء ووضعهما قرب الحفرة، وقال
لاهثا :
ـ يا الله،، لقد جاء الشيخ محمد،،

خرج ثلاثتهم من المقبرة، وتوجهوا إلى فناء المسجد حيث كانت البطانية يكبرون أربعا خاشعين أمام جلال الموت.قام بضعة شيوخ من المصلين وأقاموا صفا

وجاء الشيخ محمد إمام المسجد و قال:

ـ إنه على الفطرة من ولدان الجنة، ادعوا الله أن يكون ذخرا لأبويه في الجنة،

كبر الشيخ، وشرع سعيد يدعو الله أن يكون هذا الطفل ذخرا لأبويه اللذين

يحترقان حزنا على طفولته وبراءته وابتسامته الملائكية التي كانت تملأ عليهما

حياتهما بهجة وسعادة.وفاضت عيناه بالدموع ، كما لمح الدموع تنهمر على خدي صالح الذي كان إلى جانبه .

خرجوا من المسجد ، وتوجهوا نحو المقبرة وكان صالح يحتضن البطانية الحمراء، قطعوا الطريق المعبد، نظر سعيد يمنة ويسرة كانت المرأة الغريبة ما تزال واقفة على جانب الطريق.

أحضر محمد القطع الخشبية وبضع بلاطات ، ونزل إلى القبر ثم أشار إلى صالح

أن يناوله البطانية.أخذها صالح ، ثم أستخرج منها الجثة الملفوفة في رداء أبيض

ناصع مضمخ بالطيب الأصفر وسلمها إلى محمد الذي وضعها بيديه في القبر

، وأضجعها إلى جانبها الأيمن ومزق القماش جاعلا فتحة على وجه الطفل ،
وراح يشبك القطع الخشبية فوق القبر متجنبا وقوع الرمال على الجثة، ثم
وضع قطع البلاط على الخشب حتى سد القبر كله . ثم أفرغ صالح دلوا كبيرا
على كومة من الرمال وأخلطها بالرفش،وراح يمد كتلا من الثرى إلى أخيه
محمد الذي كان يضعها بدوره فوق البلاطات على القبر ، ولما أيقن من أن الرمال لا يمكن أن تتسلل إلى الجثة أخذ المسحاة
وراح يزيح التراب على القبر، تقدم سعيد حين رأى صالحا ذاهلا فأمسك
بالرفش وراح يساعد خاله محمدا حتى صارت كومة كبيرة من الرمل على القبر
ثم أخذ الدلو وراح يرش القبر بالماء، ووضع محمد الشاهدين .

وقف الثلاثة ، مدوا أيديهم ، قرءوا الفاتحة والصلاة على النبي ثم دعوا ما
تيسر لهم من الأدعية، وأخيرا أخذوا الأمتعة التي كانت معهم وخرجوا.

نظر سعيد إلى حيث كانت المرأة الغريبة تقف ، وجده خاليا يبدو أنها
انصرفت.

☆ ✡ ✡ ☆

.

☆ 3 ☆

الكثبان العالية تحاصر القرية من كل جانب ، وتحاصر أيضا واحات النخيل المترامية الأطراف عبر المنطقة الصحراوية الشاسعة التي تحيط بالقرية ،والمنازل الجبسية مترامية أيضا على غير نظام كأنها أطلال مدينة أثرية ،غير أن ذلك البيت المطلي بالبياض الناصع المشع والذي ازدان مدخله بجريدتين خضراوين من سعف النخيل وارتفع فوقه العلم الوطني ،كان يفرض نفسه بالقوة في ذلك الصباح إذ تعلو ضجته في سماء القرية ،فتثير السكان ، فيهرعون إلى بيت الحاج منصور يباركون العرس ،ويشاركون أهل البيت فرحهم ويتمنون للعروسين صلاح الحال بالإعمار والإثمار .

النساء يحتشدن في ساحة الحوش ،يرفعن أصواتهن بالزغاريد تارة ،وبالدعاء لأهل الدار والعروسين تارة

أخرى ،كل واحدة منهن تحاول أن تتفنن في أناقتها فتلبس أحسن ما لديها من ثياب وأغلى ما لديها من فساتين ،وتحاول أن تستعرض أكبر قدر ممكن من الحلي، وتحاول أن تجلب النساء الأخريات إليها وتتباهى عليهن بأناقتها وفساتينها وحليها .

والبنات تنتحين ركنا من أركان ساحة البيت يتحلقن ويغنين أغان خفيفة راقصة ،وتتوسط الحلقة فتاة تمتطق بمنديل وتستعرض جسدها البض ،وقوامها الممشوق وصدرها البارز وزينتها الأخاذة تهز خصرها الممتلئ بخفة ورشاقة ،ولا يهم أن تنسجم هزات خصرها مع ضربات الطبل أو لا تنسجم .

ـ خالي بدلني واش عليكم فيه ...

ولكن الراقصة سرعان ما ترتمي متظاهرة بالخجل في حين يطلبن من أخرى أن ترقص ويلحن عليها ،ويحملنها على الوقوف وذلك بأن تأخذ كل فتاة بإحدى يديها حتى إذا استوت واقفة، لففن المنديل حول أردافها ،وانطلقن في الغناء وانطلقت في الرقص .

أما العجائز فيقمن بدورهن حلقة ويرسلن أصواتهن المتثاقلة بأغانيهن التقليدية :

ـ هذا النهار المبارك والآخر سعيد اللي حضر محمد وسيدي عبيد ...

ـ أوروروروروري

وكل ذلك وصاحبة العرس الحاجة تبر قائمة على قدم وساق على شؤون الطبخ وتحضير الكسكسي ،تراعي مطالب النساء العاملات في فتل الكسكسي وتحضير القدور تحث هذه وتشكر تلك وترد على المهنئات :

ـ مبروك يا الحاجة ربي يصلح الحال .

ـ الله يبارك فيك والعاقبة لصغارك

ـ وأنت حية

ـ أوروروروري

وتتعالى الزغاريد والأغاني والتهاني والصياح والجلبة ولغط النساء كلهن يتكلمن في آن واحد وليس هناك واحدة تستمع. ويدخل غلام يافع ويقترب من الحاجة تبر ويهمس في أذنها بوفاة الطفل الصغير بشير بن صالح بن الحاج بشير. وتهتز المرأة بعنف وتبصق على صدرها :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.... ! ! !

ـ من قال لك ؟؟

ـ في الحانوت الرجال يتحدثون : قالوا أنهم تلقوا تليفونا .

امتقع وجه الحاجة تبر ، ولبثت برهة من الزمن تفكر في هذه المصيبة التي لا شك أنها ستعكر عليهم جو الفرح ، وصاحت مخاطبة البنات :

ـ اسكتن يا بنات

ولكن البنات لم يسمعنها ومضين في أغنيتهن

ـ يا لالا صايم رمضان واش أحواله

ـ يكفي مصيبة تصيبكن
ـ يا عيني وعينه طاحو في النار
ـ اسكتن نار تحرقكن ! ! ! !
ـ يا لالا..يا رايح قل له...
ونهضت الحاجة تبر وعيناها تكاد تتّقد من الغضب ، وأخذت فردة حذاء ورمت بها وسط الحلقة فسقطت على الطبل ، فانتبهت البنات ، وكففن عن الغناء .
وهرعت إليها إحدى النساء تستفسرها ، فأخبرتها الخبر ،وجلست واضعة يدها على خدها ، وأرسلت زفرات حارة مرفوقة بدمعات ساخنة وراحت تتمتم :
ـ يا لطيف يا لطيف يا رب ..يارب ..الصبر ...الصبر يارب ... يارب ارزقها الصبر المسكينة ...يبس ريقها من الجري وراء الطلبة ... ولهثت كثيرا في زيارة أولياء الله ..ولم تترك طالبا ولا عرافا إلا زارته حتى
أنجبت هذا الولد الذكر بعد ثلاث بنات على ساق .
وجاءت زهرة تحتج على أمها ، بعد أن علمت سبب إحجام النساء عن الغناء ، والنسوة عن الزغاريد .
ـ هذا حكم ربي ..لو أفسدنا عرسنا ...هل هذا يعيد الحياة إلى الطفل ..الحي أعز من الميت ..وهذه شهوة ربي.
لكن أمها أنبتها تأنيبا شديدا وأكدت لها وجوب احترام مشاعر الجيران ،وبررت ذلك بقولها :
ـ العمر كله ونحن جيران، فلم نسمع منهم كلمة : أعوذ بالله

وبعد فترة صمت لم تطل ، دخلت الصافية أرملة الحاج بشير وهتفت :

ـ مبروك مبروك عليكم ..

ثم أرسلت زغرودة طويلة. وراحت تغني بصوت أجش لم تعهده النساء منها

ـ يدوم فرحك يا غالي ...يدوم فرحك يا غالي..

وأرسلت زغرودة طويلة ثانية ، وكان من العادة أن ترد عليها النساء وخاصة أم العريس بزغرودة مماثلة لكنها لم تفعل ففهمت الصافية الأمر ، ثم تقدمت منها وأقسمت عليها :

ـ هذا عهدك وهذا عهدك وعهد ربي أن تزغردي .. عرسكم هو عرسنا وولدكم هو ولدنا ،، والحي أعز من الميت ،، ولدنا مات حوري جنة .. جاء به الله وأخذه الله فلا نحزن عليه ،، ثم أرسلت زغرودة طويلة ، وردت عليها زهرة بأخرى مماثلة،ثم دخلت الصافية حلقة العرس ترقص وتغني بحركات جنونية :

ـ سبقت ربي ولصلاة على النبي ..

ثم أرسلت زغرودة طويلة وسرعان ما عاد العرس إلى ما كان عليه.

4

جلست المرأة الشابة فطومة تكفكف دموعها حينا وتذرفها حينا آخر ، وتشكو لوعتها وأساها ، واشد ما يؤلمها أنها لم تزره يوم أمس ، وإنما أجلت زيارتها إلى اليوم عندما يجتمع شمل الأسرة لأن البنت الكبرى حبيبة لم تكن دراستها تسمح لها بزيارة أخيها وتحدث النساء اللائى تحلقن حولها ، بأنها لم تكن تتوقع إطلاقا هذه النهاية المأساوية ، فقد أرسلت له صباح اليوم ثيابه وقارورة من لبن الماعز، وكانت تنتظر بفارغ الصبر منتصف نهار اليوم حتى تذهب لرؤيته ،،وأجهشت بالبكاء من جديد

وراحت النساء يواسينها حينا ، وينهرنها حينا آخر من أجل أن ترفق بنفسها وبناتها اللاتي كن ينتحبن إلى جانبها كلما رأينها تنتحب .

ـ العني الشيطان يا فطومة ,, الله يهديك يا فطومة ,, البكاء لا يعيد من حانت ساعته،،،

ـ العني إبليس يافطومة بنتي ،، يهديك ربي ،،لست أول من فقدت صغيرها .

ـ لو كان البكاء يعيده يا العزيزة ،،لحملنا القرية كلها على البكاء معنا ،،،

ـ اصبري يا بنتي كبري قلبك ،،

وتدخل عجوز أخرى إلى البيت ، وتحيي الجميع

ـ مساؤكم بالخير .. وتضيف :

ـ البركة في رأسك يا فطومة،، الله يونسك بيه في الجنة ،،

وترد فطومة من خلال الشهيق
ـ لا أراكم الله سوءا
ثم تتمخط وتضيف :
ـ لا نـأتكم فـي مـكروه إن شـاء الله ،،وتـجهش بـالـبكاء مـن جديد
وتواصل النسوة والعجائز مواساتها :
ـ الدايم رب وحده يا أختي الحنونة
ـ لا تبكي يا غافلة البكاء يباعد بينك وبينه في الجنة ،،
ـ كل دمعة تشكل واديا يفصل بينك وبينه ! ! ! !
وانتفضت العجوز التي دخلت منذ حين في عصبية :
ـ دعنها تنفس عن قلبها ،، البكاء يريحها ،،
وفي هذه الأثناء دخلت الصافية أرملة الحاج بشير ، متثاقلة الخطى ، والدمع ينهمر على خديها ، عائدة من بيت الحاج منصور ، فبادرتها النساء بالتحية والتعزية:
ـ البركة في راسك يا الصافية
ـ لا أراكن الله سوءا ،،لا نأتكم في مكروه إن شاء الله ! !
ولامتها العجوز التي دخلت منذ حين على ما فعلته في بيت الحاج منصور قائلة :
ـ الله يهديك يا الصافية ،، ماذا فعلت ؟؟ أنت كبيرة وعاقلة ، أنـت فـي حـالـة مـن الحـزن لا يـعلمها إلا الله وتـفعلين مـا فعلت ؟؟هل كانت ستغنى الدنيا عليهم وعلى عرسهم لو لم تغني وتزغردي فيه ؟؟

أجابتها الصافية في شيء كبير من المرارة:
ـ غـصبا عـني يـا أخـيتي ،، والله إن حنجـرتـي تـكاد تنفجر ،وإن عقلي ووعيي لم يكن عندهم، وإنما كان لا بد من أن أحد من انتشار تأثير المصيبة، فينبغي ألا نزيد من حجمها وألا نترك تأثيرها يمتد إلى الجيران وينغص عليهم أفراحهم ،، فإذا قدر الله للطفل أن يموت ، فلا نميت الفرحة فـي الـقلوب الأحـياء ،،، الـغلبة لـلحياة وهـي الـتي يـجب أن تستمر.
كانت النساء ينظرن إلى الصافية وهي ترد على جارتها وقد أعجبن أيما إعجاب برزانتها ورجاحة عقلها وحكمتها ويرددن عليها من حين للآخر بعبارات تدل على الإعجاب والرضى
ـ الله يرحم والديك ! ! !
ـ يعطيك الصحة والعافية ! !
ـ يسلم ذاك الفم ! !
ويتواصل توافد النساء على بيت الحاج بشير يواسين المرأة الـشابـة فـطومـة ويـحاولـن تـخفيف مـصابـها ويـمكثن قـليلا مرددات :
ـ تصبحون على خير لا نأتكم في مكروه ! !
وتتوافد على البيت نساء أخريات وهكذا ،،
وفـجأة ، انتبهت النساء إلى مدخل البيت ،،،، إنـها الـحاجة تـبر ، لـم تـكن واحـدة مـن الـنساء تـتوقـع زيـارتـها فـي هـذا الوقت ،وإنما كن على يقين من أنها لا تفكر في هذا الأمر

البتة ، وإن فكرت فإنها لا تجد الوقت للمجيء لتعزية جيرانها وذلك بسبب انشغالاتها المكثفة في هذا الوقت بالذات حين يكثر المهنئون والضيوف .
تقدمت الحاجة تبر من الحلقة ، واقتربت من جمع النساء ،وتخللته مقتربة من المرأة الشابة فطومة ، ووعت رأسها على رأس المرأة الثكلى ، وأجهشت بالبكاء ، وراحت المرأتان تبكيان بصوت مسموع .

- 5 -

بين الكثبان الرملية التي تحاصر القرية والتي تشكل أكواما بارزة كأنها نهود العذارى اللاتي يغنين في عرس الحاج منصور ،وبين هامات النخيل الشاهقة التي تشرف على القرية من كل أنحائها وكأنها تحرصها من عوادي الزمان ،ثم تداعبها لريح فتتمايل طربا وكأنها منتشية بأغاني النسوة في ذلك العرس كان قرص الشمس قد أخذ يذوب شيئا فشيئا ويترك لونا أحمر يزين الأفق كما تزين الأصباغ خدود النساء .
كانت سيارة ال(404) الهرمة تطوي الطريق المؤدية إلى القرية في جهد وعناء ، وكان صالح يسوق السيارة ويبدو مكدودا ذاهلا ،وكان سعيد يتناسى أحداث ذلك اليوم ،ويحاول أن يمتع نظره بتلك اللوحة الفنية الرائعة التي أبدعها الخالق لتشير إلى صراع الإنسان من أجل

البقاء ،وصراع الموت والحياة ،وإلى ذلك العناق المحموم بين الموت والحياة.
وصلت السيارة إلى ساحة القرية، وترجل كل من صالح وابن أخته سعيد الذي رأى من الواجب أن يظل مع خاله ليؤنسه ويخفف عنه مصابه، توجها إلى البيت ، كان الأطفال يتجمهرون أمامه مما يدل على أنه يغص بالمعزيات،قفلا راجعين إلى ساحة القرية، أين وجدا عمارا العريس نجل الحاج منصور،رفقة زمرة من شباب القرية، يبدو أن العريس كان عائدا من حمام البلدة أين كان يصلح من شأنه،سلما وباركا ، ولم يفت عمارا أن يعزي صالحا في ابنه،ثم دعاه إلى العشاء بطريقة يفهم منها أنه ليس في حاجة إلى دعوة ،لكن الدعوة كانت موجهة بصفة خاصة إلى سعيد لأنه كان غريبا عن القرية:
ـ سيأتي معك هذا السيد إلى العشاء
ـ إنه ابن أختي .
ـ أهلا وسهلا.
افترقوا ،وتوجه صالح وابن أخته سعيد إلى كثيب رملي ارتميا على رماله اللينة،وراحا يتنفسان هواء الغروب المنعش ، وشرع صالح يحدث ابن أخته دون تمهيد:
ـ إنه عمار ابن الحاج منصور جارنا انظر كيف جمعت الصدفة الغريبة بين زواج في بيت جارنا وجنازة في بيتنا ((فارح وحزين إلى يوم الدين)) ..لقد بدأ العرس منذ يوم

أمس حين احتفلوا بحمل القفة إلى بيت العروس ، ولو مات الطفل قبل يومين لأجلو عرسهم إلى موعد لاحق ،فقد ربطت بيننا أواصر حسن الجوار منذ القديم
وكنا كأننا أسرة واحدة في بيت واحد رغم الخلافات التي يثيرها الحاج منصور مع أغلب سكان القرية ، والخصومات التي لا تنتهي ، فقد احتفظنا بعلاقتنا الحميمة معه،وبالتالي مع أسرته ، بسبب مسالمة والدي وعدم تدخله في تلك الخصومات .

بعد فترة صمت رفع سعيد رأسه وقال :

ـ لاحظت أن العرس لم يكن ساخنا بالقدر المعروف عند أهل القرى ،،فلا دفوف ولا مزامير خارج البيت ،،فهل مرد هذا إلى موت الطفل بشير ؟

ـ لا ليس الأمر كذلك ، لأن عمار يتزوج للمرة الثانية ،فقد ماتت زوجته الأولى، وأنت تعلم أن العرس الثاني عادة ما يكون أقل حرارة من الأول .

ـ إنه يبدو صغير السن فكيف تزوج هذا الشاب للمرة الثانية ،؟ وكيف ماتت تلك الزوجة الشابة ؟

ـ من المعروف أن أبناء القرى يزوجون أبناءهم مبكرا ،سيما إذا كانت أحوالهم ميسرة مثل الحاج منصور ، أما المرأة الشابة فقد ماتت إثر ولادة عسيرة لم ينج منها لا الأم ولا الوليد،

ثم استطرد صالح مفسرا :

ـ نساء القرى عادة ما يلدن في بيوتهن ، إلا إذا أعلنت القابلة التقليدية عجزها فإنهم يلجئون إلى المستشفى في آخر لحظة ، وهذا ما حدث للمرأة المرحومة،غير أن قدرها كان أقوى من الأسباب التي يتشبث بها الناس، القدر دائما هو الأقوى، غير أن الناس كثيرا ما يتشبثون بالأسباب الواهية،، الأجل إذا حضر ،حضر ،يوم المنية تعمى البصائر.
جلسا طويلا على بطن الكثيب حتى أسدل الليل ستائره على القرية ثم توجها إلى بيت الحاج منصور ، وهناك بالقرب من البيت كان يجتمع حشد غفير من الشباب ينتظرون العقد العرفي.

دخل سعيد وخاله إلى سقيفة البيت، وسلما على الحاضرين : الحاج منصور ،إمام المسجد وجمع من الشيوخ يتصدرون المجلس ،جلسا ينتظران العقد ثم العشاء .
كان الشيوخ يجاذبون أطراف الحديث ، ينتقدون بشدة الشباب وتصرفاتهم الجديدة على المجتمع والتي يرون أنها تنافي الأصالة وتتجاوز حدود الدين ، يقول أحدهم :
ـ يلبسون سراويل(بوطويل)فتبدو إليتا الواحد منهم منتفختين ويصلي وكشوف العورة،،الله لا يكشفنا ! ! !
ـ ثم إنهم يمشطون شعورهم مثل النساء ويعلقون سلاسل ! !
ـ فسدت الدنيا..
ـ هذه أشراط الساعة.

أحس سعيد بالخجل لأنه سينال نصيبه من هذا التقريع الذي يتقاسمه مع كثير من الشباب عراة الرؤوس،الذين يجلسون في غرفة السقيفة يبدون بين الحين والآخر غمزات تدل على السخرية من حديث الشيوخ .

استطرد إمام المسجد قائلا:

ـ لم نسمع في حياتنا ولا في حياة آبائنا وأجدادنا أن الرجل يمشي بدون عمامة ، هذا ليس من عمل العرب المسلمين،، هذا عمل (الروامة)العمامة واجبة على الرجل شرعا وعرفا..

ـ يرحم الله والديك يا (نعم سيدي) ! !

ـ هل هنالك نص في ذلك يا (نعم سيدي)؟؟

هكذا تكلم شاب من وراء الجمع بعد أن طأطأ رأسه حتى لا يعرفه الشيوخ.

استشاط (نعم سيدي) غضبا وقال:

ـ انظر إنهم يدعون البحث عن النصوص والأدلة حتى إذا ما وجدوها رموا بها وراء ظهورهم،،النصوص ليست كل شيء،،فهناك مندوبات وفضائل يجب أن يراعيها المسلم، ثم اهتز اهتزاز المنتصر وقال:

ـ يقول الحكماء :والعربي تاجه العمامة وشعر الوجه له علامة.

ـ هذا بيت شعر يا (نعم سيدي) ! !

هكذا تكلم شاب آخر بلهجة ساخرة وهو يتستر وراء الحشد.

ارتبك (نعم سيدي)وقال غاضبا :
ـ من هو هذا البهيم ؟؟اظهر نفسك يا جبان ! ! !
قهقه الشبان ضاحكين :
ـ ها ها ها ،،،ها ها ،،،
بعد حين بدأ العقد العرفي بإشراف (نعم سيدي) الذي شرع يلقن كلا من الحاج منصور والحاج العربي والد العروسة:
ـ بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
ـ بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
ـ أشهدكم أيها الحاضرون
ـ أشهدكم أيها الحاضرون
ـ أنني زوجت ابني عمار
ـ أنني زوجت ابني عمار
ـ من،،،،ما اسم الفتاة؟؟
ـ رقية ..رقية ...رقية
ـ من رقية بنت الحاج العربي
ـ من رقية بنت الحاج العربي
ـ على سنة الله ورسوله والصداق المعلوم
ـ على سنة الله ورسوله والصداق المعلوم

ثم جاء دور الحاج العربي ، ولقنه الصيغة الشرعية للعقد كما لقن من قبله الحاج منصور، ثم بدأ يتلو بعض الآيات والأدعية المألوفة في مثل هذه المناسبة
ـ الحمد لله الذي حرم السفاح وحلل النكاح وجعل من الماء بشرا.....
ـ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثير ا ونساء،،
رفع الناس أيديهم يؤمنون على أدعية نعم سيدي، وبعد أن فرغ الإمام من دعائه ، تعالت الأصوات من هنا وهناك:
ـ مبروك ،،مبروك ،،،مبروك..
ـ مبروك ،،رب يصلح الحال
ـ بالإعمار والإثمار ..
وأخيرا حضر العشاء، وطلبوا من الناس أن يتحلقوا حلقات من سبعة أشخاص ، ولم تكن السقيفة تتسع لذلك الجمع الغفير من الناس فخرج أكثرهم إلى ساحة المنزل أين تحلقوا كما طلب منهم القائمون على العرس ،وكان من حظ سعيد وخاله أن بقيا في السقيفة مع من بقي فيها .
انهمك الرجال حول الموائد في الأكل ، فلم تعد تسمع إلا اصطكاك الملاعق على الأطباق المملوءة بالكسكسي، وقد تربعت فوقه قطع كبيرة من اللحم بعدد الأشخاص المتحلقين حولها ، وقد تسمع أحيانا همهمات مبتورة، تدعو للحاج منصور أن يبارك الله له في رزقه ، وأن يكلّل الزواج بالنجاح ويتوج بالرفاء والبنين. والحاج منصور يأمر لهم

بالمرق مرة وبالكسكسي أو باللحم أو بالماء ويستحثهم على المزيد من الأكل
ـ زدهم المرق ،،،انظر إلى الجماعة هناك ماذا يحتاجون ،،الماء احضر لهم الماء،،،كلوا كلوا يا جماعة الخير كثير،،،
فرغ من في الغرفة من الأكل، رفعت الموائد وحضر الشاي وراحت الكؤوس تتوزع على الحاضرين ،وانتبه الحاج إلى وجود صالح من بين الحاضرين فبادره بالتحية:
ـ صالح أنت هنا ؟؟كيف حالك؟ تعالى اقترب مني،
اقترب منه صالح وهنأه بصفة خاصة ، سأله الحاج:
ـ صحيح أن الصبي (الدايم ربي) ؟؟
ـ الدايم ربي
ـ أحبه الله فأخذه إليه.. تجده في الجنة إن شاء الله ! !
ـ إن شاء الله
تدخل (نعم سيدي) بعد أن سمع ما دار بينهما:
ـ يجب ألا نجزع لما يصيبنا في هذه الدنيا الفانية ، فهي دار ابتلاء وليست دار بقاء ، الله يبتلينا بالموت والحياة وبالحسنة والسيئة،،، ((هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا))
تدخل أحد الشيوخ:
ـ كم كان عمره يا صالح؟
ـ سنتان.

ـ ولد بعد وفاة الحاج بشير إذن ، هل كان مريضا ؟
ـ منذ مدة.
قال الحاج منصور :
ـ على الرغم من أنه صبي صغير إلا أنه عكر علي صفو الفرح
ـ ربما لأنه سمي على اسم صديقك المرحوم الحاج بشير،
ـ لم انتبه لهذا الأمر إلا الآن،، لعل الأمر كذلك؟؟وعلى هذا فإنه نذر علي لئن نجم عن هذا الزواج ولد ذكر لأسمينه (بشير) وفاء لروح صديقي الحاج بشير رحمه الله !!

*** 6***

كان على صالح أن يهنئ الشاب عمارا إكمالا للواجب ولهذا فقد توجه إلى منزل الحجابة رفقة ابن اخته سعيد ومع أنه هنأه من قبل ،كما كان يحس بإرهاق شديدا إلا أنه يرى أن المباركة الحقيقية والرسمية لا تكون إلا بعد العقد ، وليس هذا رأي صالح وحده ،إنما هو أيضا رأي هذه الجموع الغفيرة التي تتوجه إلى منزل الحجابة .

بيت الحجاب يكتظ بالشباب ،تختلط جلبتهم وقهقهاتهم بالأغاني الصادرة عن جهاز تسجيل وترتفع إلى عنان السماء .وبعض الجدران مزينة بالزرابي والسجاجيد المعلقة وتحتها الفرش والأبسطة التي يجلس عليها الناس المهنئون ، وكان عمار يتصدر المكان ويجلس على الكرسي وأمامه طاولة عليها صينية كبيرة مليئة بأباريق الشاي والقهوة وصينية أخرى عليها أنواع الكعك والحلويات ، وكان يلبس بدلة جديدة ورباط عنق ويمكن لكل مهنيء وهو يمد يده للمصافحة أن يلحظ يده محمرة بالحناء .هناَ العريس عمارا ، وجلس صالح قرب جاره العريس بينما مكث سعيد ينتظر خاله في مدخل الحوش ،وكان يستمع إلى جلبة ولغط الشباب تمتزج بالأغاني التي تصدر عن جهاز التسجيل وترتفع إلى عنان السماء .

ـ يالمونة يا حلالي ،ودي غصنك للعلالي

ـ الناس كلهم تزوجوا وأنت ستبقى شبقا ،،،

ـ من أين لي أن أتزوج ؟لا دار ولا دوار ولا خدمة

ـ دبر راسك

ـ كيف يهدئ الواحد منا من فورته الجنسية ؟.؟

ـ تصرّف يا أخي دبّر راسك ،،

ـ ماذا نفعل؟

ـ إنه أخرق لا يحسن التصرّف

ـ عليك بوادٍ لا أنيس به..

ـ إنه جاهل لا يفهم الشعر

ـ قل له عليك بالفصد..
ـ ماذا أفصد؟؟
ـ سمّ الأشياء بمسمّياتها قل له.....
ـ هاهاها،،،
ـ روحي هيمانه بحبيبي ويلومونا
ـ ألا ترى أن عمارا أصغر منك سنا والليلة يكسر القلة الثانية
ـ هو حظه يمشي على رجليه أما أنا الساقية راقد فيها حمار
ـ هو راجل وأنت راجل
هكذا تعمد أحد الشباب إثارة المولدي ولد زعرة الذي يعرض به الشباب ، ويتفكهون ببلاهته
ويتخذونه موضعا للسخرية .
ـ أبوه الحاج منصور ،،، كل أرض في القرية ، إما له ،وأما له فيها نصيب
ـ وإما موضع خصام والطرف الرئيسي هو الحاج منصور
ـ لكن لا تنسى أن دراهم الحاج منصور ذهبت إلى المحاكم والمحامين،بسبب النزاعات
ـ والله معك حق ،،
هكذا تراجع المولدي ولكنه أردف ،،
ـ ومع ذلك يبقى هو ولد الحاج منصور وأنا ولد زعرة الهجالة
ـ ها ها،،ها ها ،،،،
ـ لكتب ع أوراق الشجر ،،سافر حبيبي وهجر

-7-

كان الهزيع الأول من الليل قد انقضى أو أوشك أن ينقضي عندما خرج صالح وابن أخته من مسجد القرية بعد أن أديا صلاة العشاء وما يتلوها من أذكار ونوافل ثم توجها إلى البيت.

دخلا إلى السقيفة ثم دلفا إلى الداخل بعد أن تأكدا من أن النساء الأجنبيات قد انصرفن ولم يبق داخل البيت غير المرأة الشابة فطومة والصافية والدة صالح والحاجة مسعودة عمته والخالة عويشة أم فطومة

أخذت النفوس تهدأ شيئا فشيئا وتثوب إلى رشدها، فلم تعد تسمع أصوات انتحاب النسوة، أما البنات فقد استسلمن لسلطان النوم ، وأما بقية الحاضرات فقد تحلقن حول موقد يصنعن الشاي حين دخل سعيد وخاله صالح ، وعزى الحاضرات تعزية جماعية، واتخذ مكانا له بعد أن دعته الحاجة مسعودة إلى جانبها ، واصل الجميع يتجاذبون أطراف الحديث ويتوزعون كؤوس الشاي الذي يفرض نفسه على كل مجلس ، سواء أكان فرحا أم كانت تطغى عليه مسحة من الحزن كهذا المجلس .

كان من الطبيعي أن يبدأ الحديث عن المصاب ، فقد بادرت الحاجة مسعودة، والصافية ، والخالة عويشة ، إلى تعزية الوالد المفجوع :

ـ البركة في راسك يا صالح الدايم ربي ،،

ـ عظم الله أجرك ياصالح،،

ـ هذه إرادة ربي يا العزيز ليس بيد ابن آدم إلا التسليم ..

ورد صالح في شيء كبير من الاتزان والوقار :

ـ لا أراكن الله مكروها.

سألت الحاجة عويشة :

ـ توفي صباح اليوم أم البارحة؟؟

ـ في الصباح الباكر ،، حوالي الرابعة صباحا ،،

ـ الدايم الله ،،،،أين دفنتموه؟؟

أجاب صالح :

ـ شرقي قبر أبي عند قدميه بينهما حوالي ذراع أو ذراعين

وهنا تدخل سعيد :

ـ مع أن كان هناك مكان خال إلى جانب جدي ، وقد نبهتهما إليه ، لكنهما أصرا على رأيهما

سألت الصافية :

ـ من كان معكما ؟

ـ محمد ولكنه عاد إلى الوادي .

قال صالح :

ـ في الحقيقة كان هناك مكان خال إلى جانب أبي ، لكنه يتسع لقبر شخص كبير .
قالت الحاجة مسعودة:
ـ معهما حق إذن ، لا ينبغي أن يأخذ الصبي المكان الذي يتسع لشخص كبير ،، وليكن ذلك المكان لي أنا حتى أدفن إلى جانب أخي الحاج بشير .
تدخلت الصافية:
ـ أنا التي أريد أن أدفن إلى جانب زوجي .
قال صالح مازحا :
ـ التي تموت الأولى ندفنها في المكان .
قال سعيد :
ما زالت البركة هذه الأمور علمها عند ربي ، من يدري لعلكن انتن اللاتي تدفننا ؟
ـ لا يا لطيف أنا لست صاحبة شر حتى أموت بعدكم ،، يجب أن أموت قبلكم ، وأنتم تقرِؤون علي القرآن وتدفنوني إلى جانب الحاج أخي .
هكذا أجابت الحاجة مسعودة بحدة ونرفزة .
وفي هذه الآونة دخل محمد ، وألقى التحية على الجميع ،وعزى فطومة التي كانت طول الوقت غارقة في صمتها ثم توجه نحو الحاجة مسعودة وقال لها :
ـ ما بالك ياعمتي لقد سمعت صياحك من الشارع ؟
أجابت الحاجة مرتبكة :

ـ لا أبدا .. أنا أكلم أخاك وابن أختك قلت لهما أن يدفنانـي في المكان الخالي إلى جانب الحاج .
استرجع محمد شريط الذكريات ومرت الأحداث في مخيلته بسرعة خاطفة ، ثم قال مازحا :
ـ وهل مت حتى ندفنك ؟؟
ـ لا يدوم إلا الدائم يا العزيز
هكذا أجابت الحاجة بعد إن تنهدت تنهيدة عميقة .
قالت الصافية :
ـ أنا أولى منها بالمكان ، وأولى منها بالحاج ..
قال محمد:
ـ أنـا أولـى بـه مـنكم جـميعا ، لأنـي تـركتـه خـصيصا لـنفسـي وكان يمكن أن أدفن فيه الطفل بشير.
قاطعته الحاجة بحدة أشد من الأول
ـ اللطف يـا ربـي ! ! مـازالوا صـغارا ويتمنون المـوت ، خـاف ربي والعن إبليس ،أولادك في حاجة إليك ؟
أجابها محمد ببرودة شديدة :
ـ المـوت لا يـفرق بـين صـغير وكـبير ، والـدليل عـلى ذلك مـوت الطفل بشير هذا الصباح، ثم إني لم أتمن الموت إنما تمنيت أن أدفن في المكان الخالي إلى جانب أبي
أعاد صالح رأيه في لهجة حاسمة:
ـ من يموت الأول يدفن في المكان.

لم يكن صالح قد استقرت نفسه بعد ، بل كان ممتعظا أشد الامتعاظ مما كان يدور من جدل بشأن المكان الخالي ، لكنه كان يفتعل الهدوء والوقار ويفتعل أيضا الانسجام مع الحديث الذي يدور بين الجالسين ، لكن تداخلات خاطفة تعصر قلبه بالأسى، فيسرح هنيهة ثم يعود إلى جو المجلس من جديد .

أما المرأة الشابة فطومة فكانت واجمة طول الوقت ، ولم تكن تعي شيئا مما يقال حولها ، وأحيانا يخيل إليها أن بشيرا لم يمت ، بل لا يزال حيا في المستشفى وسيعود إليها في صحة جيدة ، وربما تمني نفسها بأن طفلا آخر من نفس السن يكون قد سلم خطأ إلى صالح الذي يكون قد دفنه دون أن يراه ،،، ربما ... الرجال أجلاف قلوبهم جافة يابسة كالكرناف سيأتي خبر آخر في صبيحة الغد ،،،، تعالوا خذوا ابنكم وهو في صحة جيدة .

وتستفيق فجأة من تخيلاتها على صدمة الحقيقة العارية تتراقص أمام عينيها كعفريت من عفاريت الجان ، فيعتصر قلبها ويقطر حبات من اللهب تتساقط على كبدها فتحسها تتلظى ، ويتصاعد دخانها إلى حنجرتها ويحتبس ، فتحس حنجرتها تكاد تنفجر ،فتنفس عنها ببضع دمعات ساخنات تواريهن عن الجالسين .

وتسأل الصافية محمدا عما أتى به إلى القرية بعد أن ضرب الليل بجناحيه على الدنيا، خاصة وهو يسكن المدينة ، ومن الضروري أن يبيت مع أهله ، فأخبرها بأنه لا بد أن

يحضر منذ المساء حتى يطمئن على أهل البيت بعد المصاب ، وحتى يهنئ الحاج منصور بعرس ابنه ، فلا يجوز أن يزوج الحاج منصور ابنه الوحيد ولا يشاركه الابن الأكبر للحاج بشير فرحته، فمحمد يعتبر نفسه خليفة والده في كل صغيرة وكبيرة، وكثيرا ما كان يوصيه بالحاج منصور وابنه خيرا . إلا أن مشاغل كثيرة شغلته عن الحضور في الوقت المناسب ، منها وفاة أحد الأعيان في المدينة ، ومنها أنه مر على سوق الخردوات ليحضر السياج الذي كان صالح قد طلبه منه قبل يومين ، وقال إنه انتظر ساعة حتى حضر التاجر الذي اتفق معه على تسليم البضاعة بسعر مناسب ، وعندما حضر اعتذر بأن الكمية المطلوبة غير متوفرة. قال صالح بلهجة تنبئ بعدم الاكتراث :

ـ الله يهديك (ما يخص المشنوق غير ماكلة الحلوى) ليس لنا ما يشغلنا إلا السياج ، عندنا قضايا كثيرة تشغلنا فمحرك السيارة بحاجة إلى مراجعة ، كما أننا سنشرع في تأبير النخيل بعد أيام .

هكذا استدرك صالح وقد خشي أن يظن به صغر النفس وأن وفاة الطفل هي التي تشغله عن كل شيء ،وبهذا حاول إخفاء مشاعره الحقيقية .

قال محمد:

ـ الأمر لا يتطلب كثيرا ، ثم إن الرجل يمكنه انتظارنا ، وقد دفعت إليه عربونا ، وما علينا إلا استلام البضاعة، أما تسييج الأرض ، فيمكن إرجاؤه إلى وقت لاحق ،
تدخلت الخالة عويشة مستفسرة:
ـ وماذا تفعلون بالسياج ؟
أجاب صالح :
ـ كنا ننوي أن نحيط به الأرض التي توجد بيننا وبين واحة الحاج منصور ، ونغرس بها بضعة غرسات من النخيل ، خوفا من أن تستحوذ عليها البلدية بدعوى إنشاء مشروع لفائدة المواطنين .ولكننا سنرجيء ذلك إلى وقت لاحق.

-8-

سعيد شاب في مقتبل عمره،في ربيعه الثاني والعشرين ،وسيم الطلعة ،تبدو عليه علامات الفطنة والذكاء ، غير أن شخصيته خاملة ،منطو على نفسه ،يغلب عليه الخجل حتى في بعض المواقف العادية ،يتجنب مواجهة الناس في كثير من الأحيان ، وعلى الرغم من أنه شاب متعلم ،إلا أن خموله وسلبيته جعلت ثقافته تبدو ضحلة ، إذ لا يكاد يعبر عن رأيه إلا باقتضاب شديد ، ويكاد يبادر بالحديث حتى بين زملائه أو في فصله الدراسي إلا عنوة واضطرارا .

غير أن علاقته بأخواله كانت أكبر من عادية فمنذ صغره كان يحس بارتباطه الشديد بهم ،أشد من ارتباطه

بأعمامه ،ولذا بقي يزورهم باستمرار ، بمناسبة وبغير مناسبة، ربما كان ذلك بسبب تأثير شخصية والدته عليه التي كانت قوية ،فوالده كان خاملا هو الآخر ، كما كان غائبا عن البيت في معظم الأحيان بسبب عمله الذي لم يتح له فرصة المكوث في بيته إلا قليلا .

كان سعيد عند أخواله يحس أنه واحد منهم ، يجد لديهم راحة ربما أكثر مما يجد في بيته ، ولذا كان ينطلق في الحديث دون حرج ، ويعبر عن رأيه بكل حرية حتى عندما يتعلق الأمر ببعض المواضيع التي تجد حساسية في نفوسهم ،والتي تكون لديه رأي بحكم ثقافته مناقض لرأي أخواله، فيناقشهم بكل صراحة ، ينتقدهم بحدة حينا ، ويجاملهم أحيانا ، ويحتد بينهم النقاش ، سيما حين يتناولون أولياءهم الصالحين الذين يكنون لهم حبا يبالغون فيه ،فيرفعونهم فوق مرتبة البشر ، أو يشتدون على الذين يخالفونهم الرأي ممن لا يسلكون الطرق الصوفية فيخرجونهم من دائرة الإسلام .

ومع ما يتصف به أخواله من جمود أو تطرف ، فإنه يحبهم حبا له ما يبرره من أواصر الصلة والقرابة والعواطف المتبادلة ، وليس هناك مجال للمبررات المنطقية في علاقة عاطفية كحب سعيد لأخواله أو حبهم إياه .

اتخذ سعيد فراشه في غرفة السقيفة إلى جانب خاله محمد الذي أطفأ النور واندس داخل الفرش وأغرق في نوم عميق ، أما سعيد فقد أغرق في تفكير عميق .

كان محمد قد حرص على إطفاء النور وهو يقبل على النوم فلماذا ؟؟ النور الذي يستبشر به الناس ويلهث آخرون طيلة أعمارهم في سبيل الحصول على شعاع منه ، النور الأمل ،،النور الحياة ، يأتي عليه وقت هو الآخر فيصبح مقلقا غير مرغوب فيه ،يريد الإنسان أن يتخلص من النور ليغرق في الظلام الحالك ،، يا لها من مفارقات ! ! لماذا ؟؟هل أن الإنسان وهو مقبل على النوم ، يكون كمن هو مقبل على الموت ، النور ينسجم مع الحياة والظلام يناسب الموت ، ولأن الإنسان في حاجة ماسة إلى هذا النوم الذي يقترب إلى حد ما من الموت ، فهو أيضا يحتاج إلى الظلام ، فهل يكون الإنسان في حاجة أيضا إلى الموت ؟؟ قد تأتي عليه فترات يكون محتاجا فيها إلى الموت ، كأن يطلب الإنسان الموت ليهب الحياة للآخرين . هل الموت ضروري لوجود الحياة ؟ نعم !

هو ضروري في كثير من الأحيان ، بل إنه قد يكون خيرا من الحياة في بعض المواضع والمواقف . كما أن الإنسان يكون بحاجة ماسة إلى الموت ليعرف به الحياة .فالأشياء تعرف بأضدادها كما يقول أساتذته دائما ،ومعرفة الحياة ضرورية لكي نحياها ... فالموت بدوره يكون ضروريا .

ما أعجب هذا الهذيان الذي يقترب قليلا من هذيان النائم أو من هو بين اليقظة و النوم ،فلماذا إذن ينزعج الناس من الموت ؟ولماذا يصارعون من أجل البقاء ؟ على الرغم من أنهم يدركون أن البقاء محال وأن الموت محتوم ، ومع ذلك يحاولون

الانتصار عليه ويقدسون الحياة . كل شيء في هذا الوجود الإنسان ، الحيوان ، النبات ، يزدهي بالحياة ، وينغمر بالموت . الأعشاب في الربيع ،،ما أجملها ! ! عندما ما تكسوها الحياة ثوبها الأخضر ! ! وما أشد بؤسها وهي تصفر وتميل نحو السكون الدائم ! !

حيوانات الصحراء التي تدرك أنها عرضة لسهام الصياد ، في كل لحظة من لحظات حياتها وأن هذه السهام إن طاشت مرة فلن تطيش كل مرة ، تتحداها إلى آخر رمق ، وتحاول أن تغتنم من حياتها إلى آخر نفس ، ذلك هو الإنسان أو الحيوان أو حتى شجر الأيهقان في بادية بني عامر ، وتلك خيام الأعراب ، منتصبة يحوم حولها الأطفال والبهائم والطيور والإبل ..الصبيان في هرج ومرج بنشدون للعصافير :

خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري

وذلك هو لبيد بن ربيعة العامري يحتضن بقرة وحشية أو أتانا أو ناقة ، اختلطت الحيوانات على سعيد فقد قرأ عليها في الشعر الجاهلي لكنه لم يدر كيف تعرف عليها ، بل لم يدر كيف تعرف على لبيد نفسه ، إنه ينشد الشعر في قبة من الأدم الأحمر ، وجمهور غفير من الأطفال وحيوانات الصحراء والطيور والأنعام والإبل يتجمهرون أمامه كأنهم في مدرج من مدرجات الجامعة ، يتظللون بشجر الأيهقان ، لم يدر أيضا كيف تعرف على هذا النوع من الشجر لكنه يشبه

غرسات النخيل التي تشرف على سور مقبرة البياضة ، هل هو أيهقان أم نخيل ؟ لا يدري ..
المهم أن المدرج الجامعي الذي يكتظ بحيوانات الصحراء والأطفال والبدو من النساء والرجال يستمعون بشغف شديد إلى شعر لبيد بن ربيعة حتى حيوانات الصحراء تعبر عن إعجابها بأصوات غريبة اختلط بعضها ببعض ، فأصبحت تشبه غطيط النائمين.
البقرة الوحشية تغدو وتروح تتردد من مكان إلى مكان ملهوفة مسرعة الخطى ، إنها سوداء يتوسطها خطان أبيض وأحمر ،إنها كتلك المرأة الغريبة التي شاهدها في مقبرة البياضة ، لا بد أنها تذود الموت عن نفسها ، وأطفالها وتصارع في ذلك المطر والرياح والبرد ، وقسوة الصحراء وأنانية الصياد وشراسة كلابه .

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن غافلا أعصامها
فلحقن واعتكرت لها مدرية كالسمهرية خدها وثمامها
لتذودهن وأيقنت إن لم تذد أن قد أحم مع الحتوف حمامها

وتطول الملحمة ، ملحمة البقرة الوحشية ، أو ملحمة الصياد أو ملحمة لبيد نفسه .
من هو هذا الصياد أو هذه البقرة الوحشية ، أو من تكون تلك المرأة الغريبة التي شاهدها في مقبرة البياضة؟ هل هي

البقرة أو الأتان أو حمار الوحش أو لبيد أو تتبادل الأدوار ، فينقلب الصياد إلى بقرة أو ينقلب لبيد إلى حمار وحشي والبقرة إلى لبيد ،إن هذه المخلوقات كلها المتناقضة التي تتعارض مصالحها ،بل حياتها مع حياة الآخرين ، تصطلح مع نفسها لحظة من لحظات الزمان الذي يدور دورته المغلقة لتجلس جنبا إلى جنب ، وتحتشد في مدرج من مدرجات الجامعة ، وتتظلل بنخيل مقبرة البياضة، وترسل صرخات الإعجاب أو صرخات المعاناة ، تلك الصرخات التي تشبه غطيط النائمين ، أو إن شئت الدقة ، فقل غطيط خاله محمد الذي ينام إلى جانبه في غرفة السقيفة .

-9-

كان ذلك النهار مشمسا ، وكانت أشعة الشمس قد بدأت تدغدغ جفن سعيد الذي كان غارقا في نوم عميق ، على الرغم من ضجيج النسوة والأطفال في ساحة البيت ، فقد نبا به مضجعه ليلة البارحة بسبب الحدث الأليم الذي عايشه وترك في نفسه أثرا عميقا ، فلم يتعود معايشة مثل هذا الحدث .

لكن أشعة الشمس المتسربة من كوة صغيرة في أعلى غرفة السقيفة ، كانت قوية تنبيء بيوم شديد الحرارة، وكانت

ترغم سعيدا على التململ في فراشه فترة ، ثم فتح جفنية ، ثم النهوض من فراشه .
مضى ذلك الصباح كما يمضي كل صباح في القرية ، غير أنه في بيت الحاج بشير تميز بمسحة من بقايا حزن باهتة ،وبالاهتمام أيضا بهؤلاء الضيوف الذين أصبحوا في البيت ،محمد ، سعيد، الحاجة مسعودة ، الخالة عويشة . فلا بد من الاهتمام بهؤلاء الضيوف في تقديم وجبة الفطور ،لذلك قام صالح مبكرا وامتطى سيارته إلى القرية المجاورة وأحضر خبزا طازجا وبيضا وفولا وقد مه إلى زوجته الشابة لتحضر منه فطورا شهيا للضيوف. ولا شك أن ذلك الصباح قد تميز أيضا في بيت الحاج منصور ، وإن كان يختلف كثيرا عما رأيناه في بيت الحاج بشير .

امتطى ثلاثتهم السيارة متوجهين إلى المدينة ، لا بد من أن يقوم صالح بالواجب ويوصل أخاه وابن أخته إلى المدينة ، كما كان عليه أن يستأنف عمله : سائق سيارة أجرة غير مرخصة ! !
كان محمد في المقعد الأمامي للسيارة لابسا قشابيته الصوفية البنية ، وكان صالح يقود السيارة بعمامته الصغيرة الصفراء ، ونظارته المنشقة،وكان سعيد راكبا المقعد الخلفي . لشدما يحز في نفسه هذا المكان الخالي بجانبه والذي يذكر بالبطانية الملفوفة والتي كانت موضوعة إلىجانبه في هذا المكان .

قال محمد بصوت صباحي مشوب بنبرة النوم :
ـ ذكرني عندما نصل إلى المدينة حتى نمر على سوق الخردة .
أجابه صالح بالنبرة نفسها :
ـ وماذا تفعل في سوق الخردة ؟؟
ـ أنت تعلم أن كل بضاعة تزيد يوما عن يوم هذه الأيام،ولا بد من أن نستلم السياج
ـ ألا ترى أن الأمر قد يكلفنا ما لا طاقة لنا ؟
ـ يتدبرها الله .. فلا تقلق ..
ـ السياج ليس وحده ، فلا بد أيضا من ...
ـ الأعمدة أنا أعرف ،،هو نفسه البائع الذي سنأخذ منه السياج والأعمدة وحتى أسلاك الربط ،، كل شيء ضروري ، الحديد يغلى من يوم لآخر وتسييج الأرض ضروري أيضا .
الرجل يعرفنا ونتعامل معه مند مدة طويلة ،
السيارة تحدث شكشكة قوية ، كما أن صوت المحرك مزعج أيضا ، خاصة وهي تسعى على طريق تكثر فيها الحفر وأكوام الرمال والمنعرجات
تجاوزوا القرية وكان صالح قد حرك مقبض السرعة حتى يشتد على السيارة عندما لمح سعيد شبحا اهتز له ،،ماذا ؟
هكذا قال سعيد بصوت مسموع لكنه خافت لم ينتبه إليه رفيقاه ، إنها تلتحف بلحاف أسود مخطط بخطين أبيض وأحمر الطول نفسه ، والمشية نفسها .

إنها هي المرأة التي شاهدها في مقبرة البياضة .ما الذي أتى بها إلى هنا ؟؟هل يمكن أن تكون من هذه القرية ؟ ما إن اقتربت منها السيارة حتى لوحت بيدها الممسكة بطرف لحافها الأسود المخطط .

ـ خذ معك هذه المرأة ،

هكذا قال سعيد بلهفة وهو متشوق إلى التعرف على هذه المرأة الغريبة ،

توقفت السيارة ، فتح سعيد الباب ، ركبت المرأة وسلمت :

ـ صباح الخير ،،

كانت للهجتها طراوة وليونة ونغمة موسيقية جميلة ، تميل الألف من كلمة (صباح) إلى درجة مبالغ فيها ، وتكشف عن وجه فيه من ملامح الجمال بقية واضحة ، ومن ملامح البؤس والشقاء معا .

تأكد سعيد أن المرأة غريبة حقا ، فلهجة المرأة ليست من لهجات أهل المنطقة ، كما أنه ليس من عادة نساء المنطقة أن يكشفن عن وجوههن بهذه الطريقة . ظلت المرأة صامتة طيلة الطريق ، بينما كان صالح ومحمد يتبادلان كلمات مقتضبة بين الحين والآخر ، وعندما كانت السيارة تمر أمام مقبرة البياضة التفتت المرأة إلى يسارها وألقت نظرة على المقبرة وأرسلت تنهيدة حارة .

وصلت السيارة إلى المدينة ، وراحت ترتج على جوانب الطريق المتآكلة ، وتتقدم رويدا رويدا إلى وسط المدينة ، عندئذ رفعت المرأة رأسها وقالت :

ـ الله يخلف عليك أوصلني إلى محطة المسافرين .

ـ المحطة بعيدة يا الحاجة أنا ذاهب إلى السوق. سامحينا يالحاجة سنوصلك إلى محطة حافلات النقل الحضري.

ـ يرحم الله والديك

كان على سعيد أن يذهب إلى بيته الذي لا يبتعد كثيرا عن محطة المسافرين ، فرأى أنها فرصة لإشباع فضوله والتعرف أكثر على المرأة الغريبة فقال :

ـ أنا أيضا ذاهب إلى هنالك

ـ الله يخلف عليك يا وليدي آنسني فأنا لا أعرف البلاد والحافلات كثيرة .

ـ لابأس يا الحاجة سنصل إلى هنالك.

نزل سعيد والمرأة الغريبة أمام محطة الحافلات ، ثم وقفا ينتظران الحافلة المتجهة إلى ضاحية تكسبت ، والتي تمر أمام محطة نقل المسافرين .

ـ ممن أنت يا وليدي ؟

هكذا سألت المرأة الغريبة بعد فترة صمت .

فوجيء سعيد بسؤالها واستغربه أيما استغراب ، لاحظت المرأة دهشته واستغرابه فأردفت :

ـ لا تستغرب يا ولدي فأنا كنت من النخلة ونشأت وترعرعت فيها ، وأعرف أهلها بيتا بيتا ، كان ذلك منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ، ولا زلت أعرف الكثير منهم ،أرأيت أنني ما أن ركبت السيارة حتى تعرفت على الرجل ذي القشابية ،الذي يركب إلى جانب السائق ، أليس من أبناء الحاج بشير ؟

ـ بلى هو كذلك ،،و لكني لست من النخلة ، أنا من الوادي ، ولكن الرجل الذي تعرفت عليه هو خالي والحاج بشير جدي ...

ـ سبحان الله ! ! إذن أنت ابن بوكة ..

ـ نعم ،، نعم ،، هل تعرفينها ؟؟

ـ يا حسرتاه على الدنيا ..أكثر من خمس وعشرين سنة لم أرها ولكنها لم تبرح مخيلتي طيلة هذا العمر الطويل ، ثم ألتقي بابنها ؟ الله يبارك ! ! أصبحت رجلا يا بني ،، بوكة أصبح ابنها رجلا ! ! أعطاها ربي على قدر نيتها ، كيف حالها يا.. ما اسمك يابن بوكة؟؟

ـ سعيد .

ـ أسعدها الله بك .. كيف حال أمك يا سعيد؟؟

ـ إنها بخير .

ـ بلغها السلام من عمتك حورية .. كم كانت عزيزة علي أمك يا سعيد وكم أنا مشتاقة إلى رؤيتها ! ! كانت من أعز صديقاتي في الطفولة والصبى ، ثم لعب الزمان لعبته ورمى بكل واحدة منا في طرف من أطراف الدنيا.

بعد فترة صمت لم تطل قال سعيد في شيء كبير من الارتباك :

ـ ولكن لا يبدو عليك أنك من أهل المنطقة.

ـ أجل يا سعيد فقد كان عمري عشر سنوات حين خرجت من القرية ، ثم تزوجت بعد ذلك من خارج البلاد ، لم أبتعد كثيرا كما قد تتصور ، لكن الفقر والحدود بين البلدان ، جعلت البلاد بعيدة عني ، تزوجت في تونس وفي بلدة لا تبعد كثيرا عن هنا ، لا شك أنك تعرفها أو تسمع عنها ، تزوجت في مدينة نفطة ، كان ذلك منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما ، ولم يعد لي أهل يحرصون على أن أزورهم ، فقد توفي والدي الذي كان وجيها في القرية، وتركني طفلة صغيرة في حجر أمي ، لم أتجاوز العامين ، ثم تشردت مع والدتي ولم ننل أبسط نصيب من أملاك والدي الذي كانت أملاكه لا تحصى ، تشردنا مدة طويلة عند خالي الذي كان فقيرا ، ثم رمت بنا الأقدار إلى تونس حيث لجأنا إليها مع اللاجئين ، وهناك تزوجت من أهل تلك البلاد ، ومكثت هناك مع زوجي بينما عادت أمي وخالي إلى البلاد بعد الاستقلال ، ولم أتمكن من زيارة والدتي حتى ماتت رحمها الله .

تنفس سعيد الصعداء إنها فعلا لهجة تونسية كيف لم ينتبه إلى هذا الأمر من قبل ؟لقد صدق حدسه إنها امرأة وراءها ألغاز غريبة، سألها :

ـ ولكن لماذا لم تنالي حظك من الميراث مع أن والدك- كما تقولين- كان من أثرياء القرية ؟
ـ تلك قصة طويلة يعرفها كل سكان القرية، ولعل والدتك بوكة تعرفها أيضا.
وصلت الحافلة المؤدية إلى تكسبت ، توقفت وفتحت أبوابها ،فتدفق منها الركاب ، أشار سعيد إلى المرأة حورية بأن هذه هي الحافلة المنتظرة، تقدم نحو الباب ولحقت به حورية، صعد ثم تقدم نحو الشباك واحتجز تذكرتين وأشار للمرأة أن تجلس على أحد المقاعد،بينما ظل واقفا بالقرب منها، ثم انتظرا فترة مملة حتى غصت الحافلة بالركاب ثم انطلقت تدب دبيبا متمايلا وتتوقف من حين لآخر ،حتى أشار سعيد إلى المرأة بأن تتأهب للنهوض. توقفت الحافلة أمام محطة نقل المسافرين ، عندئذ نزل سعيد وتبعته المرأة ولم يكد يبلغ مدخل المحطة حتى توقف فجأة وقال :
ـ لم تقولي لي إلى أين تذهبين يا عمتي حورية؟
ـ وإلى أين تريدني أن أذهب يا ولدي ، لم يعد لي أحد في هذه البلاد ، بعد أن ماتت ابنتي وتنكر لي أخي ، سوف ألتحق ببيتي وابني في نفطة ، وهناك أمضي بقية عمري .
ـ يبدو أنك تحملين حكايات مأساوية غريبة أنا أحب أن أسمع منك ، وقبل ذلك سنسأل عن الحافلة المتجهة إلى تونس عسى أن نجد لك فيها مكانا .
ـ ساعدني يا سعيد الله يساعدك ويسعد بك والدتك .

ذهب سعيد إلى مكتب المحطة وسأل عن الحافلة المتوجهة إلى تونس ، فقيل له بأنها ستنطلق بعد ساعتين ، حجز سعيد تذكرة للعمة حورية وسلمها إياها ، وحاولت أن تعطيه ثمن التذكرة فامتنع بإلحاح ورجاها أن تعتبر هذه التذكرة عربون (معرفة الخير) . وفرح سعيد لأن أمامه فرصة للتعرف أكثر على المرأة ومعرفة ألغازها التي يبدو أنها مأساوية حقا .

جلس إلى جانبها في الظل على مقعد إسمنتي في أحد الأرصفة ، وهو يتشوق إلى حديثها .

بادرته حورية بالحديث قائلة:

ـ يا سعيد يا ولدي الدنيا مملوءة بالمصائب والمآسي ، وكل إنسان يسعى على هذه الأرض إلا ويخفي وراءه مأساة ، وكأن الله خلق الناس ليشقوا في هذه الدنيا ، فإذا صبروا سعدوا في الآخرة ، وإن لم يصبروا كان مصيرهم شقاء الدنيا والآخرة .

أنا أعرف يا بني أنك متشوق لمعرفة حكايتي بالتفصيل ، لكني لا أريد أن أشكو همومي لغير الله ، الشكوى لغير الله مذلة ، ودليل على عدم الصبر ، وأنا لا أريد أن أحرم نفسي سعادة الآخرة .كما حرمت سعادة الدنيا .

أطرق سعيد برهة من الزمن وهو يبحث عن طريقة يستدرج بها المرأة للحديث عن نفسها ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ كيف حال أبنائك؟
ـ البنت الدائم ربي، الله يرحمها ، أما الطفل فهو لا يزال في المدرسة ، الحياة صعبة عندنا في الجريد ، إنه يدرس وقت الدراسة ، حتى إذا فرغ منها ، خرج ليعمل في مزارع الفلاحين ليحصل على نزر يسير ، لكنه مع ذلك يساعدني على مقاومة قسوة الحياة .
ـ وأبوه ،،أعني زوجك ؟
ـ الدايم ربي،، مات منذ سنوات ، وتركنا للفقر والفاقة ، كان سترنا ووقاءنا وحرمنا ، كنا فقراء أي نعم ، لكننا لم نكن نستجدي أحدا ، ومن بعده تجرعنا مرارة الحياة، الله يرحمه ويوسع عليه.
ـ ما دمت فقيرة إلى هذا الحد فلماذا لا تطالبين بحقك في ميراث والدك ؟
ـ حاول خالي في زمن الاستعمار، لكن مع الفقر وقلة الوالي وجد الأبواب موصدة أمامه ووجد نفسه يطارد الريح بعصا ، الناس يا بني لا يقفون مع الفقير ، خاصة إذا كان ضد الغني ، فقد أنكر أخي الأكبر ، الوصي على ثروة والدي ، أن أباه تزوج وأنجب ، فقد كان الزواج عرفيا ، ولم يستمر لفترة حتى مات والدي .
فقد كان الحاج مبروك بن عمارة والدي كما قلت لك رجلا ثريا وكان أبناؤه من زوجته الأولى قد تولوا كل أعماله في واحاته ومزارعه ، ولم يعد له ما يعمل غير استلام النقود من أبنائه وإنفاقها فيما لذ وطاب وهكذا فقد استغل فقر والدتي

وتزوجها ، فقد كان شيخا طاعنا في السن ، ولم تكن والدتي قد تجاوزت عقدها الثالث ، ولم تكن زوجته وأولاده ليوافقونه على هذه الزيجة، ولذلك فقد تم كل شيء فيما يشبه السر .
وعاشت معه والدتي في بحبوحة حتى قضى نحبه ، عندئذ تنكر لنا أبناؤه أي : أخوتي بإيعاز من أمهم ومكثنا حينا من الدهر متشردين ، فقد أخرجونا حتى من البيت الذي كنا نسكنه ، وعندئذ حاولت والدتي الدفاع عن حقها ، بكل ما أوتيت من جهد و ساعدها في ذلك خالي ، وبحثوا عن الشهود الذين حضروا عقد الزواج فلم يعثروا لهم على أثر.
أخرج سعيد تنهيدة من أعماقه ، وسكت برهة ثم قال :
ـ لقد تغير ذلك الزمن القاسي الذي كان يرغم الناس على أن يكونوا قساة متحجرة أفئدتهم ، لا شك أنك ستجدين أناسا طيبين ، وأناسا لانت قلوبهم بعد أن لانت لهم الحياة ، ويمكنهم مساعدتك .
ـ القصة يا ولدي لم تتوقف عند هذا الحد فلا زالت طويلة ، ومآسيها متواصلة .
قال سعيد بشغف شديد :
ـ كيف ؟؟ أرجوك يا عمتي حورية قولي ! ! !

ـ 11 ـ

أطرقت حورية طويلا ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ كان ذلك يا ولدي منذ ست سنوات ، في ذلك العام كثر دخول الجزائريين إلى تونس ، وخاصة سكان المناطق الحدودية وكان هؤلاء يمرون على منطقة الجريد وبالذات على مدينة نفطة التي أسكنها .

كان زوجي لا يزال على قيد الحياة ، عندما دخل علي في يوم من الأيام، وقال إن سيارة قادمة من سوف متوجهة إلى مدينة قفصة ، انحرف بها السير عن الطريق فانقلبت أسفل الطريق ، وقال إن السيارة تضررت كثيرا ، لكن أصحابها خرجوا منها بسلام . وأقام ركاب السيارة ، وهم ثلاثة شبان، عند الميكانيكي الذي يساعدهم على إصلاح السيارة ، ريثما يعودون أدراجهم أو يواصلون طريقهم ، دفعني الفضول والحنين إلى البلاد إلى إرسال ابني حيث يوجدون ليسألهم عن القرية أو الموضع الذي جاءوا منه ، وجاءني بعد ساعة ليخبرني بأن السائق من الوادي ، وشاب من البياضة وآخر من النخلة ، عندئذ دفعني الشوق إلى أن أصر على دعوتهم للعشاء عندنا ، ولم يكن من السهل أن أقنع زوجي بدعوة أشخاص غرباء إلى بيتنا .

أحضرت لهم الشاي بعد العشاء ثم سألتهم :

ـ أيكم من النخلة؟

اهتز شاب من بينهم وقال مندهشا :

ـ أنا من النخلة .... لماذا ؟؟

سألته عن أحوال سكان النخلة فقال :

ـ إنهم بخير .. هل تعرفين النخلة ؟
ـ ممن أنت يا ولدي ؟
ـ لماذا تسألين ؟ هل تعرفين لو قلت لك ؟
وأضاف ساخرا :
ـ ما أبعد النخلة عن نفطة ! !
فقلت له :
ـ كيف حال أبناء الحاج مبروك بن عمارة ؟
وهنا ارتبك الشاب وفوجيء أيما مفاجأة وقال مندهشا :
ـ أستحلفك بالله كيف تعرفين الحاج مبروك وأنت تونسية؟؟
أجبته بأنني من أصل جزائري ، وقد أقمت بقرية النخلة حينا من الدهر ، وتعرفت على أهلها ، وخاصة الحاج مبروك بن عمارة، ثم رحلت عن القرية أيام الثورة .
وكان يبدو واضحا أن ذلك الشاب لم يكن مقتنعا بكلامي ، لكنه أبدى اقتناعه إرضاء ومجاملة لي .
وقد وقع الشاب من نفسي موقعا حسنا ، ربما بسبب اندفاعه وبراءته وفطنته ، وكان طول الوقت كمن يريد أن يقول شيئا ، لكنه كان متحفظا . وحاولت أن أتعرف علية فسألته ما اسمك يا بني ؟، فأجاب :
ـ اسمي عمارة وينادونني عمار وأنا حفيد الحاج مبروك بن عمارة، وكما ترين فإن اسمي على اسم جدي عمارة .
عندئذ ، لم أتمالك عواطفي وأجهشت بالبكاء ،ثم نهضت من المكان ودخلت غرفتي ، وأغلقت على نفسي .

أما زوجي ، فلم ينتبه إلى طبيعة العلاقة التي تصلني بالشاب ، ولم يجد تفسيرا لتصرفي إلا أن يرده إلى مجرد حنين امرأة مرهفة الحس إلى وطن ترعرعت على تربته ونمت تحت سمائه .

وفي صبيحة الغد نبهت زوجي إلى أن ذلك الشاب الجزائري الوسيم ابن أخي ، ولشد ما يؤلمني عدم اعتراف عائلتي بي وشعوري بأنني نبتة فطرية بدون جذور

، تهزها رياح الشبهات فتعبث بها كيفما تشاء . وحتى أتعلق بأبسط سبب يشدني إلى جذوري ، أو أشعر نفسي بذلك ، فإني رجوت زوجي أن يحسن إلى ذلك الشاب ، ويحاول دعوته إلينا دون إعلامه بحقيقة الأمر ، ولم يكن بوسعي حينئذ أن أطلعه بحقيقة الأمر ، لأنه ليس من المعقول في نظر شاب في مثل سنه ، أن تكون له عمة لا يسمع عنها ولا يعرف عنها شيئا ، تهبط عليه فجأة من السماء ، وحتى لو أن الحكايات الغريبة واردة على ذهنه فإنه لاشك سيرجئ أمر تصديقي إلى حين عودته إلى البلاد وسؤال أهله عن الحقيقة ، وحينئذ لا آمن مكر أخي والد الشاب الذي أعرف جيدا كيف يستطيع أن يكيد ، ويحول بيني وبينه .وكان يكفيني أن يسمع الجيران بأن حورية السوفية زارها قريب لها من الجزائر ، فتتعزز ثقتي بنفسي بعض الشيء ، وأشعر أنني امرأة لها جذور مثل كل الناس .

وفي صبيحة الغد أعددت القهوة وما تيسر من الطعام لفطور الصباح ، ولم يكن في ميسور زوجي أن يأخذ إليهم

الفطور حيث باتوا عند الميكانيكي .طلبت من ابني أن يذهب إليهم ويدعو الشاب عمارة حتى يأخذ الإفطار إلى رفيقيه ، وكان الطفل يهم بالذهاب عندما سمعت طرقا خفيفا على الباب ، وقال إنه الشاب الجزائري .

انشرح صدري له أكثر واستقبلته بسعادة غامرة ، ولم يكن أقل انشراحا وغبطة عندما أخبرته بأنني كنت منذ لحظة سأدعوه حتى يفطر ويأخذ الفطور إلى رفيقيه ، ولشدما كانت سعادتي عظيمة حين قال لي :

ـ القلوب عند بعضها يا عمتي ، لكنني لم آت للفطور ، فصاحب المستودع لم يكن مقصرا معنا ، فقد أفطرنا والحمد لله ،

ومع أني أعرف أن كلمة عمي أو عمتي عند أهل سوف تقال لكل من يراد احترامه ، فإنني أحسست لها رنينا خاصا لعله كان سبب سعادتي .

ودعوته للجلوس ، وقدمت له القهوة ،واجتمعنا إليه أنا وابناي، ثم أطرق هنيهة وقال :

ـ لقد مر بنا الحاج زوجك ، وطلب مني ألا انصرف حتى أودع العمة حورية، ولا أظن أننا سنمكث هنا أكثر من اليوم ، ولعلنا ننصرف بعد الظهر ، أما أنا فسأواصل طريقي إلى قفصة ، وأما رفيقاي فسيعودان أدراجهما .

وقلت له بإلحاح :

ـ لا تذهب يا بني يجب أن تعود إلينا وتتغدى معنا .

وهنا تنهد وقال :
ـ سوف أتغدى معكم مرات ومرات وأزوركم كثيرا على شرط أن تجيبيني على بعض الأسئلة بصراحة .
وهنا دق قلبي دقات عنيفة ، وأحسست كأنه سيطير من بين ضلوعي ،تمهلت هنيهة حتى استقرت نفسي بعض الشيء ، ثم قلت له :
ـ اسأل ما بدا لك يا بني ، سأجيبك على قدر ما أعلم .
ـ متى خرجت من النخلة وجئت إلى تونس ، هل يمكن أن أعرف السنة بالضبط ؟.
ـ لقد قلت لك بأننا خرجنا بعد أن قامت الثورة بسنة أو سنتين.
ـ الثورة قامت عام أربعة وخمسين ، هل يمكن أن أعرف كم كان عمرك وقتئذ ؟
أجبته بارتباك شديد :
ـ لا أذكر جيدا يا بني لقد طال العهد.
ـ لا بأس نستطيع أن نحسبها ....كم عمرك الآن ؟
ارتبكت ارتباكا شديدا ولم استطع الإجابة ، فأضاف الشاب عمارة :
ـ لا يمكن أن يتجاوز عمرك الأربعين بكثير .
ظللت صامتة لا أستطيع أن أنبس ببنت شفة ، فواصل الشاب حديثه :

ـ ولعلمي بأن جدي الحاج مبروك توفي عام ستة وأربعين ، فإنك تكونين قد تعرفت على الحاج مبروك وعمرك أقل من خمسة أعوام .

سكت قليلا ثم أضاف :

ـ أستسمجك يا عمتي فأنا لا أقصد إحراجك ، لكن شكوكا أخرى تساورني منذ البارحة . فقد كنت أسمع من بعض سكان القرية ، أن الحاج مبروك قد تزوج امرأة في أواخر حياته وأن هذه المرأة ولدت بنتا قبيل موته، وبسبب نكران والدي وأخوته فقد تشردت المرأة فترة من الزمن ثم لجأت إلى تونس مع اللاجئين .وقد حاولت أن أحقق في الأمر فرأيت أن كثيرا من شيوخ وعجائز القرية يقرون بهذه الحقيقة غير أنهم متحفظون تجنبا لإثارة المشاكل مع والدي .

ثم سألت كثيرا عن تلك المرأة وأهلها وعن الوجهة التي سلكتها ، فلم أظفر إلا بإجابات متضاربة ، يؤكد بعضها أن المرأة عادت من تونس بعد الاستقلال مع ابنتها ، ويؤكد بعضها الآخر أنها استوطنت مدينة نفطة ، وسألت عنها كثيرا في القرى المجاورة فلم أعثر لها على أثر ،فرجح لدي أنها مكثت هنا في تونس ، فلما ألححت البارحة في السؤال عن النخلة .وعن الحاج مبروك خاصة فإن الشكوك قد بدأت تساورني.

تنفست الصعداء وانهمرت دموعي على خدي ، وقلت له من خلال الشهيق :

ـ شكوكك في محلها يا ابن أخي .. ولكن ما الذي دعاك إلى كل هذا البحث والعناء ؟

ـ منذ كنت صغيرا ، كنت ألقى أينما حللت في قريتي بعض اللمز و التعريض ، وكنت دائما أحس أن أهل القرية يكرهون والدي ويكرهوني بالتالي، وكان ذلك يحز في نفسي ويؤلمني أشد الألم ، وبسبب ذلك فقد كنت دائما أحاول التقرب من الناس حتى يصارحوني بما لم أكن أعلمه عن والدي ، وكنت أتكلف معهم انتقاد والدي وإظهار عدم التفاهم معه خصوصا في المسائل المادية، وبهذه الطريقة تمكنت من الحصول على معلومات كلها تؤكد جشع والدي ، وأنانيته وحبه للأموال والأملاك وسعيه للانفراد بثروة جدي، حتى أنهم يتهمونه بأنه دفع بأخوته إلى الثورة ليس من أجل الدفاع عن الوطن ، إنما غرر بهم حتى يتخلص منهم وينفرد بأملاك والده .

وبحثي عنك من أجل التأكد مما يروج بين سكان القرية، فإن ثبت هذا فلماذا لا أحاول إصلاح هذا الشرخ الذي تسببت فيه أطراف عدة لا والدي وحده . نعم أنا لا أنكر أنه المتسبب الرئيسي ، ولكن ، كان من واجب سكان النخلة ألا يسكتوا عن أمر عظيم كهذا ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، كما أن الخطأ أيضا خطأ جدي الحاج مبروك لأنه تصرف كما يتصرف الطفل إزاء اللعبة التي ينفق بها وقته ثم يهملها ، وبما أنك جئت إلى الدنيا وهو على قيد الحياة ،

فقد كان من واجبه أن يرعى بنوتك ويثبت موقفك في العائلة ولم يكن
من حق والدتك أن تسكت على أمر عظيم كهذا ، إنه حقها لا في الميراث وحسب ، بل في زواجها الشرعي وأمومتها الشرعية . وعلى الرغم من أن والدي لا يزال يعتبرني طفلا صغيرا إلا أنني سأحاول رأب الصدع ، ليس من أجل عمتي فقط ، بل من أجلي أنا ، ومن أجل والدي ومن أجل العائلة كلها.
ـ أخيرا استجاب الله لدعائي يا ابن أخي ، أنا والله لا أطمع في ذلك ،يكفيني أن تعترف بي أنت ... أنت ملك من السماء يا ابن أخي أرسلك الله لإنقاذي بعد اليأس.

كان ذلك اليوم من أسعد أيام حياتي ، فقد ألححت على عمارة أن يمكث معنا ذلك اليوم ، وقلت لأبني وجيراني وكل سكان الحي أن عندنا ضيفا ، هو
ابن أخي ، جاءنا زائرا من وادي سوف. وفي يوم الغد واصل عمارة سيره إلى قفصة بعد أن وعدني بأن يمر علينا في طريق عودته. وفعلا لم يغب عمارة أكثر من يومين ، ثم عاد إلينا محملا بالهدايا من الملابس لي ولأبنائي ، ثم مكث يوما آخر وكان كأحسن ما يكون الضيوف حياء وأدبا وخلقا ، وقد تعلقت به كثيرا ورجوته ألا يخبر والده باكتشافه هدا حتى لا ينغص علي سعادتي ، ورجوته أيضا أن يزورني باستمرار .

وهكذا توثقت عرى الصلة بيني وبين ابن أخي لمدة طويلة زادت عن السنتين ، وفي إحدى الزيارات كان طول الوقت

ساكتا ولا يتكلم إلا باقتضاب شديد ، فاعترتني الحيرة ، وطلبت منه أن يصارحني بما يكنه صدره من الخواطر ، فقال لي بعد شيء من التحفظ ، إنه يخيل إليه أنه لقي الحل للمشكلة التي يعاني منها الجميع ، هو وعمته حورية والعائلة كلها ، ولا بد من أن استرجع موقعي من الأسرة ، أسرة الحاج مبروك .

و استفسر ته عن أي حل يتحدث ، وكيف يكون هذا الحل خاصة وهو يعرف والده أكثر من أي كان ، فتحدث عن شيء سماه عروة أو حلقة وصل ، ولا أذكر ما قاله بالتحديد لأنه يستعمل أحيانا كلام المدرسة . وكان الشاب عمارة ا بن أخي يقصد ليلى ابنتي ـ رحمها الله ـ . فقد وقعت الفتاة من قلبه موقعا حسنا ، وكان ذلك يبدو لي جيدا أثناء كل زيارة، ولكنني لم أدر ما أفعل حتى أحيل بينه وبينها ، لأني أخشى أن تتعلق به وتكون كمن تعلق بسراب ، فأنا أعرف جيدا أن أخي لا يمكن أن يترك ابنه يتزوج من ابنتي .

وعندما فهمت ذلك منه ارتعدت فرائصي، فقد حدث ما كنت أخشاه ، واعترضت عليه بشدة ، وأكدت له أن زواجه من ابنتي يعتبر أعظم حلم وأجمل أمنية ، ولو وقع هذا الزواج فإني سأكون أسعد إنسان على وجه الأرض ، ولكنه في الواقع شيء مستحيل .

ألح علي وأقنعني بأن أوافق ولا أهتم بأمر والده ، وأكد لي أنه يعرف كيف يجعله يوافق على هذا الزواج ، وأوقف احتجاجاتي بلهجة صارمة قائلا :

ـ ألا تثقين في يا عمتي ؟؟

ثم غاب عنا مدة طويلة جاءنا بعدها ممتطيا سيارة مملوءة بالهدايا ، ومصحوبا بوالدته ، وعندئذ قال بأن والده وافق بعد إلحاح شديد، وإضراب عن الزواج ، وعزوف عن كل الفتيات اللاتي اقترحهن عليه ، وبعد أن كاد الوالد ييئس من زواج ابنه الوحيد، وافق على أن يتزوج ولكن الفتاة التي يحبها هو وليست التي يقترحها عليه والده ،عندئذ أعرب الوالد عن ابتهاجه لهذا التطور الكبير في موقف ابنه من الزواج ، ولم يعد يهمه من يتزوج ، إنما المهم أن يتزوج ابنه الوحيد وكفى ، لهذا وافقه على أن يتزوج فتاة تونسية تعرف عليها منذ مدة .

وإذن فقد رأيت يا سعيد أن ابن أخي لم يحقق لي ما كنت أحلم به من الوصل بيني وبين عائلتي بواسطة هذه الزيجة ، ولا تتصور أني قبلت ذلك بسهولة ، فقد أقنعني ابن أخي بأن هذه المرحلة الأولى من الخطة ، وسوف تليها المرحلة الثانية التي تعيد كل شيء إلى مجراه الطبيعي.

وهكذا استقبلت أمه كما أستقبل امرأة جزائرية لا أعرف عنها شيئا إلا أن ابنها عمارة شاب ممتاز تعرفت عليه بسبب حادث مرور وقع له في مدينة نفطة ، ثم توثقت الصلة بينه وبين الأسرة إلى حد خطبته لابنتي .

وقد تم كل شيء كما يتم أي ارتباط بين أسرتين غريبتين وقد وقعت الفتاة من الأسرة موقعا حسنا فعاشت في بيت أخي كأحسن ما تعيش العرائس ، أما أنا فلم أكن أستطيع أن أزورهم إلا لماما ، وفي إحدى زياراتي للقرية ،وقبل السهرة العائلية التي تجمع الشيخ والعجوز والشاب وحتى الطفل الصغير ، همس لي عمارة بأن موعد تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة قد حان .

وبدأت السهرة العائلية ، وتوزعت كؤوس الشاي ، أطباق الحلويات التونسية التي كنت قد صنعتها بمساعدة ابنتي ليلى رحمها الله وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث فقال أخي بأننا التونسيين ماهرون في صنع الحلويات فقلت له بأن الجزائريين أيضا ما هرون في صنع أشياء أخرى غير الحلويات ، وبدأ الحديث عن الجزائريين والتونسيين والصفات المشتركة وخصائص كل من الشعبين الشقيقين وقال أخي بأنه بعرف بعضا من أهل غريب الذين يقطنون بلاد الجريد وهنا تدخل الشاب عمارة بذكاء وقال :

ـ ولكن عمتي ليست من أهل غريب .

ارتبكت وخفت أن ينزلق لسانه فتحدث المفاجأة الكبرى التي لا ندري نتيجتها ، ولذا تدخلت بسرعة وقلت ـ لقد عشت مع غريب طول عمري فأصبحت منهم ،

ثم سكت قليلا وكان الشاب عمارة يرمقني بنظرة حادة ملحة ، فبدأت أحاول أن استجمع شجاعتي ، فقال أخي نحن لا نعرف من التونسيين إلا أهل غريب .

فـأجـبته مـحاولـة التخـلص مـن الـنظرة الـحادة المـلحة الـتي يرمقني بها عمارة :
ـ فـي الحقيقة يا الحاج ، أنا لا تربطني أي علاقة قرابة ، لا بأهل غريب ولا بغيرهم من التونسيين .
ـ هل تعنين أنك لست تونسية ؟
ـ نعم والدتي تزعم أنها جزائرية أما فلا يهمني ، المهم أننا عرب والحمد لله .
قال عمارة :
ـ بسبب ثورة التحرير هاجر كثير من الجزائريين ولجئوا إلى تونس ، وقد تكون والدة عمتي حورية من هؤلاء
وقال أخي :
ـ ووالدك ألم يهاجر إلى تونس ؟
فقلت :
ـ كان والدي قد توفي منذ مدة رحمه الله فقد تركني رضيعة في حجر أمي .
ـ ألا تعرفين من أين والدتك ؟
ـ لا أعرف ..لا بد أن تكون من سوف فهي أقرب منطقة إلى نفطة
ـ ما اسمها ؟
وهـنا ارتـبكت ارتـباكـا شـديـدا وحـاولت عـبثا أن أغير وجـهة الحديث ، ولكنه ألح علي وقال :
ـ ما اسم والدتك يا حورية ؟

فقلت :
ـ لا تعرفها يا الحاج بلاد سوف واسعة .
ولكن نظرة عمارة الحادة كانت تلح بأن هذا هو الظرف المناسب وانفلتت مني الكلمة دون شعور :
ـ مباركة بنت غادة .
وهنا أطرق الحاج طويلا ثم أجهش بالبكاء ووجم طول الوقت ، ثم نهض ودخل غرفته ، وأغلق على نفسه .
وفي صباح الغد أعلن أخي لأبنه وابنته وزوجته أنني يمكن أن أكون أخته لكنه كان متحفظا ، ويريد أن يتأكد ،غير أنني أبديت عدم اكتراثي بالأمر حتى لا يتفطن للحيلة التي نسجها عمارة بالاتفاق معي ، أما أخي فقد كان مهتما بالأمر وظل ثلاثة أيام قلقا مضطربا كأنما يريد أن يقنع نفسه بأنني يمكن ألا أكون أخته والواقع يفرض علية الحقيقة العارية التي نزلت علية فجأة ولا يجد عنها محيصا .
وبعد ذلك قال لي :
ـ نحن أخوة يا حورية ،إن الله يفرق ويجمع بمشيئته وقد شاء أن يفرقنا حتى ظننا أنه لم يعد هناك من الأسباب ما يصل بيننا ، ثم أراد أن يصل بيننا فأوجد الأسباب من العدم ، فسبحانه مسبب الأسباب . ولعلك تتصور يا سعيد مبلغ السعادة التي غمرتني عندما حزت على اعتراف أخي ففي ذلك اليوم طفت بمنازل القرية كلها ،وعرفتهم بنفسي وكنت أسعد مخلوقة على وجه الأرض ، ولم يكن الشاب عمارة أقل

مني فرحا ، فقد نجحت خطته وعاد كل شيء إلى مجراه الطبيعي كما وعدني . ولبثت فيهم أياما مضت كالحلم ثم عدت إلى بلدتي ، ولم يكن مفر من العودة ، فقد حققت ما كنت أحلم به طول عمري ، فأصبح لي أهل أحن إليهم وأزورهم في المناسبات والأعياد ، وكانت ابنتي عر وستهم المعززة ، وكنت في كل زيارة ضيفتهم المكرمة ، وهكذا تذوقت من السعادة شهدها الذي ما حلمت أن أتذوقه في حياتي ولكن الدهر أبى إلا أن يذيقني هذا الشهد ، ولم أكد أتمتع به وأمعن النظر في لذته حتى حرمني منه مرة أخرى فكانت تعاستي أشد مما كانت عليه ،بل إنني كنت قبلئذ تعودت طعم البؤس والشقاء فاستأنست به في فمي ، أما وقد تغير طعم لساني ، وعرف الحلاوة فإن طعم المرارة بعد الحلاوة شديد لا يطاق ، فقد ماتت المسكينة موتا غصبا وتركت في حلقي غصة وفي كبدي لظى وفي قلبي مرارة .

وانهمرت الدموع غزيرة من عيني حورية حتى بللت الأرض ،وسكتت طويلا ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ لم يأتني نعي ابنتي إلا بعد أسبوع من دفنها ، فلم يتمكن الشاب عمارة من إبلاغي بالأمر لأن وقع الصدمة كان شديدا عليه ، أما أخي فقد بعث رسالة عادية عن طريق البريد وصلتني بعد أسبوع .

ـ لقد قلت أن ابنتك ماتت فجأة ، فكيف ؟

ـ ولادة عسيرة ، كنت أنتظر البشرى بالمولود الجديد ،فجاءني النعي .

ـ تقولين ولادة عسيرة ،ألا يتعلق الأمر بابن الحاج منصور ؟
ـ نعم إنه الحاج منصور ، ظننتك لا تعرفه لأنك لست من النخلة، الحاج منصور هو أخي ،ولعلك علمت أن ابنه قد تزوج البارحة ، بارك الله فيه الشاب عمارة أرسل يدعوني لحضور زواجه ، ولكن جراحي لم تندمل بعد ، ولملمت نفسي وجئت من البعد أهنئ أخي وابنه ، ولكن أخي سامحه الله أعرض وأشاح بوجهه ، وسمعته يقول لزوجته وبكل قسوة وفضاضة :
ـ ما الذي جاء بهذه التونسية بعد أن ماتت ابنتها ؟

- 12-

كانت بوكة أم سعيد تنتظر مجيء ابنها بفارغ الصبر ، فقد سمعت بوفاة الطفل بشير ، وكان عليها أن تذهب إلى النخلة لتعزية أخيها وأهله ، لكن سعيدا خرج منذ صباح أمس ولم يعد ، فهي ليست قلقة على ابنها الذي لا تعرف أين غاب هذه المدة لأنه تعود على الغياب عند أخواله أو حتى عند أعمامه لاسيما أثناء العطل حين يكثر تجواله ، لكنها كانت قلقة قلقا شديدا لأنها لا تعرف كيف تذهب إلى النخلة ، فزوجها غائب باستمرار وأبناؤها لا يزالون صغارا ، وإذن فكان لا بد من أن يأتي سعيد ليرافقها إلى بيت أخيها . لذا تراها ، واقفة على قدميها في باحة المنزل تصل إلى السقيفة ثم تعود ،أما سعيد فقد بقي مع المرأة حورية التي أشبعت

فضوله بأخبارها عن قصتها المأساوية ، ثم ركبت الحافلة عائدة إلى بلدها .

عاد إلى البيت حوالي منتصف النهار يبحث عن الطعام ولكنه لم يجد الطعام ، إنما وجد أمه واقفة في باحة البيت تنتظره وما أن لمحته حتى انفجرت في وجهه غاضبة تنتقد تصرفاته الصبيانية إذ كيف يخرج ويغيب عن البيت يومين كاملين دون أن يخبر عن مكان وجوده . ثم أمرته بحدة ونرفزة أن يخرج في ذات الوقت ليبحث لها عن سيارة أجرة حتى تذهب إلى النخلة .

ولم يتردد كثيرا بل لم يرد بكلمة واحدة عن وابل التقريع الذي أمطرته به أمه ، بل خرج ساكتا ليبحث عن سيارة الأجرة ، إنها فرصة حسنه ليمكث في النخلة مدة أخرى خاصة بعد أن ارتبطت في ذهنه بالسيدة حورية وقصتها المأساوية .

وما هي إلا ساعة حتى كان سعيد وأمه وأخوته يدخلون القرية على متن سيارة الأجرة .

كان صالح قد سبقه إلى القرية ، فالسيارة متوقفة أمام البيت ، لكن هناك شيئا يلفت الانتباه.. كومة كبيرة من السياج ومجموعة من الأعمدة موضوعة جانب الجدار قرب السيارة .

ما أحرصهم على هذه الأرض التي يريدون تطويقها ! !

ترى هل يعرف صالح ماذا سيفعل هو وأخوه محمد بهذه

الأرض التي يحرصان على إحاطتها بسياج ، وحيازتها بمنجاة عن عيون البلدية .
لو سألت أحدهما هل يعرف بالتحديد ماذا سيفعل بهذه القطعة الأرضية الصغيرة هل يستطيع أن يجيبك ؟ الجواب سيكون قطعا :
المهم أن تكون في حيازتنا وألا تستحوذ عليها البلدية فقد نحتاج إليها في المستقبل ، هذا أقل ما يصل إليه جشع الإنسان وأنانيته وحبه للدنيا ونكرانه للموت .
ملك له ورثه عن أبيه وجده ، فيحب أن يبقى كذلك . حتى وإن لم يستفد منه ، ولو بقي مهملا ولو كانت البلدية ستبني عليها مدرسة يتعلم فيها الجميع ، أو مستوصفا يعالج فيه الجميع ، وحتى إن كان الجميع في أمس الحاجة إلى ممتلكاته .
أتم الثلاثة غداءهم : محمد ، صالح ، سعيد .وشربوا كؤوسا من الشاي كما هي العادة الجارية ، وكانوا يهمون أن يقوموا لصلاة الظهر عندما تنبه محمد وقال :
ـ لماذا لا نتم العملية هذه العشية مادام سعيد معنا يساعدنا ، ولا يبقى إلا دعم الأعمدة بالجبس ، تستطيع أن تقوم به وحدك في يوم آخر .. أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أحضر باستمرار لكثرة انشغالاتي ، وهذه فرصة وجود سعيد معنا .
قال صالح :

ـ لعل الأمر يتطلب وقتا أطول من هذه العشية
أجاب محمد :
ـ سنفعل ما قدرنا عليه ، هيا يا رجل صل الظهر واعتمد على الله ، فلن يخيبك .
وهكذا توضئوا وصلوا خارج البيت على قطعة الأرض الصغيرة ثم راح كل منهم يشمر عن ساعديه ويستعد للعمل ، وانشغلوا يجوبون الأرض جيئة وذهابا يذرعونها ويقيسون مواقع الأعمدة ،ثم يثبتونها على الأرض الرملية الهشة ويحلون كومة السياج الملفوفة ، وراحوا يمططونها حول الأعمدة حتى استقامت ، وأخيرا أخذ كل منهم لفة من أسلاك الربط وتوزعوا على الأعمدة يشدون السياج إلى الأعمدة شدا محكما ثم يربطونه بالأسلاك الرفيعة ، ولم يؤذن قرص الشمس بالاختفاء وراء الكثبان البعيدة ،حتى كانت الجماعة قد أتمت عملها بإحكام وإتقان .

كانت تلك الليلة ستمر على بيت الحاج بشير كما تمر كل ليلة، غير أن وجود الضيوف أضفى على تلك الليلة جوا خاصا كاد ينسي فطومة حزنها على صغيرها ، إذ استمتع هؤلاء الضيوف بكؤوس الشاي اللذيذ ، وبصوت الحاجة مسعودة الندي الذي تغنى ببعض المدائح الصوفية ، فأطرب الجميع وراحوا يميلون برؤوسهم يمينا وشمالا وهم يرددون مطلع المديح :

بسم الله بديت نمجد عن زين الخصلات

ألف صلاة على محمد بحر الكرامات

مما جعل السهرة تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل ، الأمر الذي أرهق أهل الدار فلم يستيقظوا صباح الغد إلا بعد أن غمرت الشمس كثبان وواحات القرية.

كان سعيد وخاله محمد يتأهبان للخروج من غرفة السقيفة حين لمحا صالحا داخلا إلى البيت بوجه كالح، يضرب كفا بكف ويتمتم :

ـ الله يهلك أولاد الحرام ! ! !

فاعترضا سبيله يستفسر انه الأمر ، ولكنه لم يستطع الإجابة وإنما فتح الباب على مصراعيه وأشار إليهما بالخروج ، لرؤية ما بخارج البيت فهرعا إلى الباب وكانت الصدمة المفاجئة ..

كومة كبيرة من السياج ملفوفة لفا فوضويا اختلطت بها مجموعة من الأعمدة ، وتكدست قرب البيت . انه السياج الذي أحاطوا به الأرض عشية أمس .

ـ الله يهلك أولاد الحرام

ـ من أقدم على هذا الفعل الجبان الدنيء ؟

ـ هل يمكن أن يكون ... ؟

ـ ومن غيره ؟

هكذا أجاب صالح وهو يكاد ينفجر حنقا وغيظا ، ثم تراجع إلى خارج البيت ، وطلب من أخيه وابن أخته الدخول ، وذهب يهرول بخطوات واسعة ، يغرف الرمال الهشة بكلتا

قدميه ويثيرها يمينا وشمالا ويومئ بيديه بعصبية عنيفة ، متوجها إلى بيت الحاج منصور ، وما أن وصل الباب حتى ضربه بعنف شديد ثم صاح بصوت متهدج :

ـ الحاج ... الحاج ... منصور .... الحاج ! ! !

خرج الشاب عمار وفزع من هذا المنظر الذي رأى عليه صالحا ، وسأله مستغربا :

ـ صباح الخير يا صالح ... مالك ؟ لا بأس ؟

ـ أريد أباك ...أين أبوك ؟

ـ اهدأ يا أخي قل لي ماذا هنالك ؟

ـ لا شأن لي بك .. ادع أباك .

ـ أرجوك يا صالح اهدأ .. إذا كانت هناك مشكلة ، يجب أن نحلها في هدوء وحكمة ، لا يليق أن تقع بيننا وبينكم مشاكل ، أنتم بالذات .

ـ أبوك يا عمار ، لا يسلم منه أحد ، أين هو ؟

ـ أنا أعدك بإصلاح الأمر كما تريد .. أخبرني فقط ..

ـ تعال أنظر ماذا فعل أبوك .

ألقى عمار نظرة إلى الساحة حيث كومة السياج الملفوفة .امتقع وجهه ، وأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال لصالح بصوت مرتبك :

ـ هل أنت متأكد من أنه والدي ؟

تردد صالح قليلا ثم قال :

ـ ادعه إلينا وسنعرف منه شخصيا .

وفـي هـده اللحـظة بـرز الـحاج مـنصور مـن مـدخـل الـحوش مـتعمما بـعمامـة مـن الـشاش الأبـيض لابـسا جـبة بـيضاء فضفاضـة ، ممسكا بـخيزرانـته مـن وسـطها ، وتقدم بخطى متثاقلة متأملا يمينا وشمالا وما كاد يقترب من صالح وعمار الواقفين قرب السياج ، حتى بادره صالح بالتحية :

ـ صباح الخير يا عمي الحاج

غير أن الحاج منصور يبدو أنه سمع كل شيء وفهم سر فورة صالح وغضبه لذلك نظر في وجه صالح مليا :

ـ صباح الخير . ثم أردف :

ـ الله يهديك يا بني !

وهنا ثار صالح من جديد إذ فهم من نبرة الحاج ومن سياق كلامه انه ينحي عليه باللائمة .

ـ الله يهديك أنت .. أنا لا اعتدي على جيراني..

أجـابـه الـحاج مـنصور بـلهجة هـادئـة ، تـوحـي بـشيء مـن الاستخفاف بصالح وفورته العصبية :

ـ اهدأ يا بني .. (بالرزانة يباع الصوف)

ثم أردف :

ـ ألا تـريـد الهـدايـة ؟ الله يهـديـنا نـحن كـلنا بـحاجـة إلـى الهداية.. لقد أخطأت في حقي مرتين يا ولدي : الخطأ الأول هو أنك تجاوزتني وعملت ببنت رأسك وكأنني لست الحاج منصور الذي أعتبر نفسي أباكم بعد المرحوم الحاج بشير ،

ثم إني جارك ، وفي عرفنا أن هذه الأمور ، تتم باتفاق بين الجيران .
أما الخطأ الثاني يا صالح ، فهو اتهامك لي دون سائر الناس قبل أن تتثبت من الأمر .

شعر صالح كأن دلوا كبيرا من الماء البارد صب عليه من أم رأسه إلى أمخص قدميه ، ولم يحر جوابا يدعم به موقفه المهزوز أمام الحاج منصور الذي يقف أمامه وقفة وقار ، ناظرا إليه بعينين صارمتين ، لا يكاد نظره يلتقي بهما حتى يصرفه خجلا إذ كأنهما تمطرانه بوابل من التقريع والتأنيب .

خرج محمد وسعيد من البيت وقد استبطأ صالحا كما أن الفضول دفعهما لمعرفة ما يجري بين الحاج منصور وصالح ، فمحمد ليست له الجرأة الكافية لمواجهة الحاج ، لذلك حاول تجنب الموقف في البداية ، أخوه صالح ، وهو أصغر منه سنا و أشد منه جرأة . كما أنه توقع أن يحتدم النقاش بين الرجلين ،لذلك ادخر نفسه لتهدئة الأمور ، غير أنه لما أصاخ السمع إلى ما يجري خارج البيت ، لم يسمع ما كان يتوقعه من نزاع حاد بين الرجلين.

توجه محمد وسعيد إلى حيث الحاج منصور وصالح والشاب عمار وقد انضم إليهم بضعة أنفار من شباب الجيران ، سلما فرد الحاج عليهما السلام ، وبادر محمدا قائلا :

ـ ما بال أخيك يا محمد ؟

فأجابه محمد:
ـ أرجو أن تعذره يا عمي الحاج ، لقد تعب أمس حتى استوى السياج كما ينبغي له ، وكانت الصدمة شديدة عليه حين رأى جهوده ضاعت هدرا .
رد الحاج بنبرة رزينة أشد من الأول قائلا :
ـ لا بأس عليه، إذا ثبت أن هذه الأرض له ، فلا داعي لهذه الأسلاك ، وليحطها بسور مبني ولا عليه إن لم يكن معه المال الكافي لذلك ، فقد سبق أن ذكرته بأني في مقام والدكم بعد المرحوم .
وهنا ثارت ثائرة صالح، وغلا الدم في عروقه ، لكنه حاول ضبط نفسه إلى أدنى حد وقال بصوت متهدج يفيض حنقا وغيظا :
ـ معنى ذلك أنك تشك في ملكيتنا لهذه الأرض ؟
أجاب الحاج على الفور :
ـ اهدأ يا بني ، هل قلت هذا الكلام ؟ ومن أين لي أن أعرف ؟ اعتبرها ملكك ، وقدم أوراقك للبلدية ، للحصول على رخصة البناء ، وستجد عمك الحاج تحت الطلب .
وهمّ بالانصراف ورشق خيزرانته بعنف على الأرض الهشة ، وألقى على صالح نظرة أخيرة تحمل كثيرا من المعاني ، ثم أردف :
ـ السلام عليكم ..

ثم توجه نحو المرير المؤدي إلى الواحة ، وراح يصعد الكثيب المحيط بالواحة بخطى متثاقلة متوكئا على خيزرانته
ظلت الجماعة في المكان الذي تركهم فيه الحاج منصور ، أ ما عمار فقد دخل إلى البيت ، أما صالح ومحمد وسعيد وبضعة من شباب القرية فظلوا متحلقين وسط الساحة ، ينظر بعضهم إلى بعض في بلاهة ، مشدوهين ، لا يكادون يفهمون شيئا مما حدث .
أخيرا تكلم أحد الحاضرين بعد فترة صمت :
ـ اللعب مع الحاج منصور من أصعب ما يكون ، ويتطلب شيئا كبيرا من الدهاء والمكر ..
أردف شاب آخر :
ـ والصبر وبرودة الأعصاب .
تنهد صالح تنهيدة من العمق ثم قال :
ـ ماذا عسانا أ ن نفعل الآن ؟
قال سعيد بحماس :
ـ نعيد إحاطة الأرض بالسياج
قال شاب آخر :
ـ بل نحيط الأرض بسور من الجبس .
ـ كيف؟ .
ـ عشية خميس ويوم جمعة .
ـ نعم .. فكرة صائبة .. حتى إذا كان يوم السبت وجد نفسه أمام الأمر الواقع .

ـ نعم .. وعندئذ فليلجأ إلى المحاكم .. وسيكون الوقت لصالحنا .. ولينطح الجدار .
هكذا تكلم صالح بحرارة ، وبلهجة انتقامية ، لكن سعيدا استدرك :
ـ لكن الأمر يتطلب إمكانيات كبيرة ، وفي أقصر زمن ممكن .
قال أحد الشبان :
ـ بالنسبة لليد العاملة لا تشغل بالك .. أنا أضمن لكم أن شباب القرية كلهم متطوعون .
قال آخر :
ـ بالنسبة للحجارة لا تشغل بالك ، أنا أجلب لك القدر الكافي ، وليوسع الله عليك.
قال آخر:
ـ أما الجبس ، فلا تشغلوا بالكم ، عندنا الفرن ، سنصنع لكم القدر الكافي وليوسع الله عليكم .
ـ لم تعد هنا مشكلة ا
ـ يجب أن يحاط الأمر بالسرية التامة حتى لا يعلم الحاج منصور .
ـ موعدنا يوم الخميس .
بينما كان الشبان مندفعين يتكلمون بحرارة ، يحاولون مساندة صالح حتى ينتصر على الحاج منصور وكأن انتصاره انتصار لهم جميعا على الجشع و الطمع والأنانية ،

كان محمد صامتا طول الوقت و أخيرا تكلم بلهجة هادئة فأنصت إليه الجميع :
ـ أرى أن نهدأ اللعب قليلا ، خاصة مع الحاج منصور ، أنا شخصيا لي أمل في التفاهم معه ، ثم أين الدهاء و الرزانة و الصبر و برودة الأعصاب في كل الذي قلتموه و تريدون أن تفعلوه ؟ .
رد عليه صالح بانفعال شديد :
ـ ماذا تريد منا أن نفعل إذن ؟.
ـ سأحاول التفاهم معه بنفسي .
ـ لقد رأيت حديثه معنا منذ فليل .. (لا يبل و لا يعل) .
ـ من رأيي أن نقدم طلبا للبلدية .
هكذا قال محمد بشيء من التردد
ـ الغدر من طبائعه ، ما أشار لكم بهذا إلا ليفعل فعلته ويتقدم باعتراضه .
ـ ويصبح هو المسكين المدعى عليه و أنا المدعي .
هكذا أجاب صالح بلهجة عصبية .
قال شاب من الحاضرين :
ـ في المحاكم الجزائرية ... أن تكون مدعى عليك خير لك من أن تكون مدعيا .
ـ لا عليكم الآن ، سأذهب الليلة و سأتحدث معه حتى اعرف أين يصب ماؤه ، و عندئذ سنتصرف

كان الحاج منصور ، ومنذ مدة ليست بالقصيرة قد أحس بدبيب الشيخوخة يقترب منه شيئًا فشيئًا ، ويتسلق جسده فيثقل كاهله بأعباء السنين الطويلة التي قضاها يصارع رمال الصحراء ، غير أنه لم يكن يبالي طالما كان دائما على ثقة من أن قلبه لا يزال قويا حازما في اتخاذ القرارات التي ترضي نزواته ، لا يتردد قيد أنملة ، في أن يقلب ظهر المجنّ على الدنيا كلها ، إذا رأى أن سطوته ستصبح محل سؤال من أي كان .

كان رجلا يقترب من سن السبعين قصير القامة أسمر البشرة ، مستدير الوجه ، يزينه شريط رفيع من الشعر الأبيض القصير على شكل نصف دائرة ،لتكتمل الدائرة البيضاء عندما يضيف إليها العمامة التي تشكل نصف دائرة ، أخرى تحاصر الوجه من الأعلى. عينان غائرتان صغيرتان إلا أن نظرتهما حادة ، أنف أفطس صغير ، وثغر يفتر عن ابتسامة دائمة ، ذلك سر قوة الحاج منصور ، بشاشته وطلاقة وجهه ، ولسانه المرن ، كما أن قوته تكمن أيضا ، في قلبه القوي الذي لا يؤثر فيه شيء من العواطف التي يعرفها الناس وترقق قلوبهم
خاصة في سن الحاج منصور .
وعلى الرغم من أن سكان القرية يكنون له في قلوبهم كثيرا من الجفوة، بل يصل الأمر بهم في كثير من الأحيان إلى البغض بسبب تطرفه في إشباع نزواته وتقوية سطوته ، إلا أنهم لا يجرءون على المجاهرة بذلك، بل لا يجرءون على ذكره

بسوء في مجالسهم .ويفتعلون الاحترام والتقدير كلما مروا به فيهشون له ويبادرونه بالتحية

ذلك أن وقار الحاج منصور ، واتزانه ، وشخصيته القوية تفرض نفسها على الجميع . وهو يعرف جيدا مشاعر سكان القرية ، ويعرف تزلفهم إليه بسبب وبلا سبب ، إلا أنه يكتفي بذلك التوقير المفتعل على الرغم من انه يحز في نفسه ، ويؤرقه في بعض الأحيان ، فقد ورث الحاج منصور عن والده الحاج مبروك بن عمارة كل شيء إلا قلوب سكان القرية حبهم ، صدقهم وإخلاصهم . الشيء الوحيد الذي يعرف أنه لم يستطع أن يستولي عليه كما استطاع أن يستولي على كل شيء .

فقد كان الحاج مبروك بن عمارة - كما يقولون عنه -أول من عمر القرية ، وأول من رفع زنبيل رمل ، وأول من غرس نخلة ، وأول من وضع حجرا . ولذا فقد قدم المساعدات لكل من أراد أن يقيم ، بل يقال إنه تنازل عن نخيل غرسه ، وتعهده إلى أن أثمر إلى أناس سكنوا وعمروا . وكان الناس يجدون عنده التمر فيملؤون بطونهم وجيوبهم ، عندما كان الشر يخيم على هذه الأراضي القاحلة حيث لا يكادون يجدون إلا الترثوث والذانون وهي فطريات مرة اضطروا ، في بعض الأحيان أن يملؤوا بها بطونهم . ومع ذلك كله فقد كان الحاج مبروك متواضعا إلى أبعد الحدود ، يحب الناس شفوقا عليهم ، يعتبر سكان القرية كلهم صغارهم وكبارهم أولاده ، وكانوا بدورهم يعتبرونه والدهم المبجل ويلجؤون إليه في منازعاتهم ،

ويرضون بأي حكم يصدره لهم أو عليهم . وعلى الرغم من أن جل أراضي القرية كانت بحوزته ، إلا أنه لم يكن يعترض على أي من الناس أراد أن يغرس أو يبني ، ولذا كانوا يقولون عنه أنه أفرغ قلبه من الدنيا فجاءته طائعة وملأت يديه . وهكذا كان سكان القرية يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة ، حتى حين يتعلق الأمر في مسائل شخصية كالزواج والطلاق ، وذلك عن طواعية وطيبة خاطر .

كان الحاج مبروك قد رزق بثلاثة أبناء ذكور : أكبرهم منصور الذي تولى الإشراف على أملاك والده من واحات وغنم وإبل ، ذلك بعد أن بدأ الكبر ينال من والده ، فحل محله وظل أخواه لخضر وعلي يساعدانه إلى أن صعدا إلى الجبال أين استشهدا في حرب التحرير .

كما أنجب أواخر عمره البنت الصغيرة حورية التي تركها في حجر أمها حين التحق بجوار ربه ، وقد أنجبها من زوجته الثانية التي زفت إليه في شيخوخته مع أنها كانت شابة في زهرة العمر ، إذ لم يكن الناس يجدون غضاضة في أن يتزوج الشيخ الطاعن في السن من فتاة في ربيع الشباب ، سيما إذا كان يمتلك الثراء والجاه اللذين يتمتع بهما الحاج مبروك .

وهكذا فقد انفرد الابن منصور بكل ما كان يمتلكه من ثراء ، ومع ذلك لم يستطع أن يتبوأ المكانة التي كانت لوالده في قلوب سكان القرية ، ذلك لأنه كان يفتقر إلى كثير من خصال والده من كرم وسماحة ورأفة بالضعفاء وتواضع .

الحاج منصور ينظر إلى الناس من زاوية مناقضة لتلك التي كان ينظر منها والده إلى هؤلاء الناس أنفسهم ، فهو يرى أن لوالده الفضل على سكان القرية ،فقد عمر لهم وأسكنهم وجمع شتاتهم .، أما الحاج مبروك فيرى أن هؤلاء الناس لهم الفضل عليه ، إذ آنسوه في وحدته وساعدوه على تعمير هذه الكثبان التي لم تكن تعرف للحياة أثرا .

ولعل ذلك سبب العلاقة الفاترة بل والمتوترة أحيانا بين الحاج منصور وأهل القرية ، فهم -في نظره - ناكرون للجميل ، يملأ الحسد أعينهم ، لا يرضون بما قسم الله لهم من الرزق ، إلا على مضض .

وهو في نظرهم لم يكتف بالجشع والأنانية ، بل لم يرض بالمكانة التي بوأه الله إياها ، إنما يحاول أن يكون خليفة الله في القرية ، وأن يكون وصيا عليهم وعلى أملاكهم ،لا تتحرك شعرة إلا بإذنه، وهم ينسبون إليه هذا القول الذي يدل على تطرفه مع ما فيه من مغالاة : ((الله في السماء وأنا في النخلة)) كما يتهمونه بمخالفة كل ما كان عليه والده الحاج مبروك من خصال حميدة من حب للمعروف ، و زهد في متاع الحياة الدنيا ، ولذا فهم يذكرون دائما ، عندما يتعلق الأمر بالتناقض الموجود بين الحاج منصور ووالده أن الأضداد تخرج من الأضداد وأن النار تلد الرماد .

والرجل الوحيد الذي احتفظ بعلاقة حميمة بالحاج منصور ، هو الحاج بشير بالأخضر والد صالح ومحمد،وجار الحاج منصور وصديقه الحميم .

وربما تبدو هذه العلاقة غريبة بين رجل كالحاج منصور ، سكنت الدنيا أعماق قلبه ، وملأت عليه حياته ورجل كالحاج بشير زهد في الدنيا إلى أبعد الحدود ، يقولون عنه إنه رجل مبارك ، ذلك لهدوءه واتزانه وبعده عما يشتغل به الناس من متاع الحياة الدنيا ، لا يفارق بيته إلا للجامع أو الواحة ، ومع ذلك فالحاج منصور يزروه باستمرار ويتقرب منه ، ربما لأنه الرجل الوحيد الذي لا يغبطه فيما كسب أو اكتسب ، ولا يحاول منافسته ، وربما لأنه يتمتع ببعض صفات والده الحاج مبروك ، الصفات التي لم يستطع أن يرثها من والده فيحاول إذن أن يتقرب منها في شخص الحاج بشير .ومع أن سكان النخلة يبغضون الحاج منصور، فعلى العكس كانوا يحبون الحاج بشير ويبجلونه لما رأوا فيه من زهد وتقوى وتجنب للمجالس التي يكثر فيها اللغو ، وربما نعتوه بأنه (نية) يتصف ببعض الغفلة ، وهو أسهل تفسير للعلاقة التي بينه وبين صديقه .فحيل الرجل وألاعيبه سرعان ما تنطلي على الرجل الطيب ، فيطمئن له ويعاشره بالمعروف . أما الحاج منصور فهو يحاول أن يشعر نفسه بأنه رجل طيب ، لكنه مظلوم من أهل القرية ، ولا أدل على ذلك من حبه هذا الرجل المبارك وصداقته لذلك كان يحب الحاج بشير إلى حد كبير على الرغم من النظرة المؤنبة التي

لا تفارق عينيه، تلك النظرة التي يحاول الحاج منصور أن يترجمها إلى كلام حتى يجد المبررات لإقناع صديقه بسلامة مواقفه لكنه يخفق دائما ، لأن الرجل لا يزيد عليها ويكتفي بهدوئه الدائم ، الشيء الذي يؤرق الحاج منصور ، ذلك الغموض الذي كان يشده إلى صديقه فيحاول توثيق الصلة بينهما .

ومنذ وفاة الحاج بشير ، أحس الشيخ بعزلة نفسية إضافة إلى عزلته الاجتماعية ، وبسبب ذلك لاقى الرجل عناء شديدا ، فحاول أن يتقرب إلى الناس . كما حاول أن يلين من مواقفه ، لكنه أخفق في كل ذلك ، فلم يستطع أن يهون الجفوة التي بينه وبين أهل القرية ، لأن مشاعرهم القديمة تجاه الرجل قد ترسبت في أعماقهم ، فلم يعد من السهل تحريكها ،كما أن طبع الرجل غلب تطبعه ، فلم يكن اللين الذي كان يدعيه أكثر من كلام معسول قاله في المجالس التي يقيمها الشيوخ في ساحة القرية .وهكذا فلم يكن في وسعه إلا أن يقرب إليه أبناء الحاج بشير ، ويحاول أن يبوئهم مقاعد أبنائه ، فعاملهم بالرفق الذي كان يعامل به والدهم . غير أن الدم فار في عروقه عشية أمس ، بعد أن أدى صلاة المغرب في مسجد القرية ، وخرج متثاقلا إلى بيته ليصيب عشاءه ، ووقف أمام البيت مذهولا وقد رأى السياج الذي أحاط بقطعة الأرض ، فاغتاظ غيظا شديدا ولم يستطع أن يصيب عشاءه ولا أن يغمض جفنيه حتى نهض قائما وكلف أحد معاونيه بقلع السياج، وقد تصرف

كذلك تلقائيا بما يمليه عليه طبعه المتأصل فيه ونزوته الجامحة ،وبعدئذ فقط تنفس الصعداء وهم بالنوم .

لكنه ولأول مرة أحس بدبيب الشيخوخة ، ينساب إلى قلبه فيوهنه وهنا شديدا ، وتراءت له عينان مؤنبتان ،ما لبث أن تعرف عليهما ، إنهما عينا صديقه الحاج بشير ، العينان المؤنبتان تؤرقانه أكثر من ذي قبل ، بل تعذبانه ، فينبو به مضجعه ، ولا يغلبه النوم إلا بعد أن تململ طويلا في فراشه ، ومع ذلك فلم يكن نومه هادئا مطمئنا ، بل كان مليئا بالكوابيس المزعجة .

فالعينان المؤنبتان لا تبرحانه ، والحاج بشير يستقبله هاشا باشا في بيت أحيط بغرسات النخيل ، وزين بأعمدة خضراء ، والصديق القديم الجديد يعانقه ويدعوه للعشاء في بيته الجديد ، الذي بدا له جميلا متسعا ، ويدخله غرفة السقيفة المزينة بالزرابي ، ويحتار الحاج منصور فلم يعهد على صديقه أن يعيش بهذا الرخاء والترف ، بل عهده زاهدا متقشفا ، ويقدم له طبقا مليئا بالكسكسي انتصبت فوقه قطعة كبيرة من اللحم فيسيل لعابه ويدعو لصديقه بالخير والبركة ، ويهم بوضع ملعقة الكسكسى في فمه فيجدها رملا ، ويمسك بقطعة اللحم فيجدها حجرا ،فتصدمه المفاجأة المزعجة ، وينتبه من نومه فزعا مذعورا ، يرتعد من هول ما رأى فيتعوذ بالله من الشيطان ويبسمل ويحوقل ، ويسلم نفسه للنوم من جديد . لكن العينين المؤنبتين لا تزالان تطاردانه ، وتؤرقانه وتزعجانه ، فيرى نفسه زائرا لقبر الحاج

بشير في مقبرة البياضة ، لكن الرجل يطل بعينيه المؤنبتين ، ويمد يده للمصافحة ، ويصافح الرجل صديقه بحرارة ، ويهم أن يطلق يده ، لكن يد الحاج بشير تمسكه بقوة وتجذبه بعنف ، فيتزحزح من مكانه ، وينتبه من نومه فزعا مذعورا فيتعوذ بالله من الشيطان ، ويبسمل ويحوقل ويعود للنوم من جديد .

-14-

كانت المرأة الشابة فطومة ، قد بدأت تتناسى فقيدها ، وتعود شيئا فشيئا إلى حياتها المعتادة ،غير أن طيف بشير كان يمر على ذهنها المكدود من حين لآخر فيعتصر قلبها بالأسى ، إلا أنها تهون على نفسها و تمنيها بقرب اليوم السابع ، موعد زيارة الأسرة للمقبرة .

وجاء اليوم الموعود ، ونهضت فطومة باكرا على غير عادتها ، وأنهت أشغالها الصباحية قبل بزوغ شمس ذلك الخميس .وأيقظت بناتها وأصلحت من شأنهن ، وكانت شديدة اللهفة تنتظر ذلك الموعد بفارغ الصبر ، كأنما تنتظر أن تجد بشيرا قابعا ينتظرها ليرد على ابتسامتها باتسامته الحلوة البريئة ، لم تكن فطومة تعلم ما يراودها من أفكار على وجه الدقة ، إنما لم تكن تستطيع إخفاء فرحتها ولهفتها على بلوغ هدفها المنشود : مقبرة البياضة.

أما صالح فلم يكن ذلك الموعد يمثل لديه أكثر من واجب ثقيل ، يضيع عليه أشغال ذلك الصباح، إذ كان عليه أن يحرص على متابعة تحضير متابعة مواد البناء لإقامة الجدران التي تفصل بينه وبين الحاج منصور على قطعة الأرض الصغيرة ، حتى يضع جاره الشيخ أمام الأمر الواقع ، مع علمه أنه لن يستسلم بهذه السهولة ،وهو على كل حال مستعد لدخول المعركة معه والوصول فيها إلى مداها .

وصلت السيارة الهرمة أمام الباب الأخضر الكبير ، وترجل صالح وأمه الصافية وزوجته فطومة وبناته عائشة وحبيبة وسمية ، وتجاوزوا السور السميك وتوجهوا نحو قبر الحاج بشير وحفيده الصغير ،مدوا أياديهم للدعاء وانحنوا على التراب والحجارة يقبلونها ، ثم وقفوا شاردي الأذهان .

قطعت الطفلة الصغيرة سمية الصمت بسؤالها البريء :

ـ أين بشير ؟

ـ إنه هنا .

هكذا أجاب صالح بصوت يتكلف البشاشة ، غير أن نبرة الحزن كانت غالبة عليه ، وهو يشير إلى كومة التراب الصغيرة .

سألت الطفلة مرة أخرى :

ـ كيف يمكن النزول إليه؟

أجهشت المرأة الشابة فطومة بالبكاء

ـ العني إبليس .. البكاء في المقبرة حرام .

هكذا نهرتها الصافية ، محاولة صدها عن البكاء ، ثم أردفت :
ـ أين المكان الخالي الذي قال عنه سعيد ؟
والتفت صالح يبحث عن المكان الخالي ، وكانت دهشته عظيمة حين لم يجده . لقد وجد مكانه كومة كبيرة من التراب بحجم قبر ، وضع عليها شاهدان .
ـ لقد سبقونا إلى المكان الخالي لقد كان هنا ، مكان هذا القبر ،، لم يكن هذا القبر موجودا قبل سبعة أيام ، كان خاليا .
ـ من دفن هنا ؟ ليس من عادة الناس أن يدفنوا قرب أناس لا يعرفونهم .
بقي لغز المكان الخالي معلقا فلا يمكن أن يدفن أحد في هذا المكان بالذات ، إلا إذا كان من العائلة أو ذا قرابة وطيدة ، ولا يمكن أن يموت شخص بهذا الشأن ،ويدفن في هذا المكان ، ولا تسمع عنه الأسرة .
انصرف الجميع ،وقد كان الألم والحزن يعتصران قلب فطومة ، فقد انقضى الموعد الذي كانت تنتظره بلهفة ، ولم تر من ابنها إلا التراب والحجر .
وخرجت تجر رجليها جرا ... والتحق أفراد الأسرة بسيارتهم ، وولوا أدبارهم نحو قرية النخلة .

ـ 15 ـ

كان سعيد شديد الشوق إلى أن يشهد التحدي الذي يعتزم شباب قرية النخلة أن يرفعوه في وجه الحاج منصور لذلك حرص على الوصول إلى القرية في منتصف ذلك الخميس

امتطى سيارة أجرة راحت تلتهم الطريق التهاما ، أما هو فراح كعادته يغرق في تأملاته ...

ماذا لو نجح شباب القرية في نصرة صالح في قضيته بهذه الطريقة الاندفاعية ، الحاج منصور بماله وجاهه وسطوته ، والسلطات التي لا بد أن تدعم حقه في تأجيل بناء الأرض .. ماذا لو انهزمت كل هذه العوامل أمام الحل الثوري الشباني ؟ نعم لا بد أن تنتصر الثورة الشبانية كل الثورات يقودها الشبان .. وتنتصر دائما على عوامل شبيهة بما يحوز عليه الحاج منصور ، بل على ما هو أقوى من ذلك ، كل موازين العقل تتضاءل أمام عنف الثورة وغضبها وسرعتها وصرعتها ..

ابتسم سعيد لهذه الفكرة التي برقت في ذهنه فجأة وقد تذكر خاله محمد الذي اختار الحل السياسي التفاوضي !

رفع رأسه متطلعا إلى الطريق : البياضة .لم تعد تفصلنا عن النخلة إلا عشر دقائق ، كم هو متشوق إلى الوصول . لمح على يمينه الباب الحديدي الأخضر الكبير ، عادت إلى ذهنه حوادث الأسبوع الماضي ، وتوقف هنا عند الباب الأخضر الكبير ،، وعاد إلى تأملاته من جديد ،،

مقبرة أولاد حمد بابها أخضر كبير ،، وكذلك باب مقبرة سيدي يوسف ،، باب المقبرة دائما أخضر .. لكن الخضرة ترمز عادة إلى الحياة ؟ هل ندخل إلى عالم الموت عبر بوابة الحياة ؟ ربما ،، ما العلاقة بين خضرة الباب : الحياة ؟ وبين سكون القبور : الموت ؟لا شك أن العلاقة بينهما جد وطيدة ..

ترجل سعيد في ساحة القرية واتجه رأسا إلى المكان المحدد : قطعة الأرض الصغيرة ، كان يخيل إليه أن يجدها تعج بالحركة والجلبة التي يصنعها شباب النخلة ، الذين يتطوعون لنصرة صالح ، وكسر أنانية وجشع الحاج منصور ، غير أن خيبة أمله كانت كبيرة ، فلم يجد شيئا مما كان يتوقع ، إنما وجد المكان خاليا من كل شيء ، إلا من كومة كبيرة من الجبس ، وأخرى من الحجارة ، طرق الباب ثم دلف إلى مدخل الحوش ، أين وجد صالحا قد فرغ لتوه من تناول غدائه ، أما البنات والنساء فقد كانت أصواتهن تصدر من إحدى الغرف .

استقبله خاله بحرارة فسلم وجلس ، وقد جاءت صينية الشاي ، فراحا يتجاذبان أطراف الحديث وهما يرتشفان الشاي بروية وإمعان .

ـ يبدو أن النخلة قد راقتك بجوها الهادئ .

ـ لم أكن أنتظر أن أجده هادئا .

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني ما اتفقنا عليه قبل أيام مع شبان النخلة

ـ لا تتشاءم ، لم يحن الوقت بعد.
ـ ليس هناك أي جديد في القضية ؟
ـ أبدا
ـ ظننت أنكم صرفتم النظر عن هذا .
ـ لماذا ؟
فكر سعيد قليلا وكان يود أن يبوح لخاله بما كان يخيل إليه ، لكنه أحجم ، فقد أقر بينه وبين نفسه أن الواقع يختلف كثيرا عن الخيال ، فحاول أن يغير مجرى الحديث فقال :
ـ ماذا فعل محمد ؟
ـ لم يفعل و لن يفعل شيئا
ـ ألم يذهب إلى الحاج منصور ؟
سكت صالح قليلا ثم أجاب :
ـ سواء أذهب أم لم يذهب فالنتيجة واحدة .
ـ لكنك لم تجب عن سؤالي؟
أجاب صالح بلهجة متذمرة :
ـ أنت معذور لأنك لا تعرف الرجل .. دعنا من هذا يرحم الله والديك.
سكت قليلا ثم أردف بعد أن انبسطت تقطيبة وجهه :
ـ يالله يا سعيد ، نصلي الظهر ، سيبدأ العوانة في الحضور .
وفعلا توضأ وصليا الظهر على قطعة الأرض الصغيرة ، لكن العمال المتطوعين أو العوانة لم يحضر منهم أحد .

بدأ الضجر يتملك صالحا ، ولحظ سعيد ذلك في وجهه فقال :
ـ (إذا ما جاش بن نصر الله نباتو قعود)؟
ـ ماذا تعني ؟
ـ نبدأ في العمل .
ـ لا نستطيع أن نفعل شيئا وحدنا ، ثم إنهم سيأتون بلا شك.
وهنا سمعا طرقا بالباب ، فهب صالح مسرعا ، ثم نادى ابن أخته بصوت تبدو عليه نبرة الفرح بوضوح :
ـ يالله يا سعيد جاء (العوانة)
لحق سعيد بخاله ، فخرج من البيت ، لقي ثلاثة شبان فسلم عليهم ، يبدو أن أحدهم (المعلم)،أي البناء فهو يحمل المسطرة والخيط وبعض الأدوات في كيس ، جال المعلم بعينيه في الأرض وفي كومتي الجبس والحجارة،
وسأل صالحا عن حدود القطعة الأرضية الصغيرة ، ثم راح يذرعها جيئة وذهابا ، وأخيرا وقف وفكر قليلا ثم أعلن أن المواد المتوفرة لا تكفي لبناء الجدران الرئيسية التي تفصل الأرض عن واحة الحاج منصور ، وتفصلها عن الشارع ، وظهر على وجه صالح التذمر والسخط ، ليس لهذا السبب وحده ، بل إن (العوانة) أيضا لم يحضر منهم إلا عدد قليل ، فلم يكن يتوقع أن ذلك الحماس سيفتر بهذه السرعة ، ومع

ذلك فقد أشار صالح إلى (المعلم) أن يبدأ العمل ، فلعل البقية ستأتي عشية اليوم أو صبيحة الغد .
وبدأوا يحفرون لوضع الأسس ، لكن الشيخ أطل بعمامته البيضاء ، إنه الحاج منصور !
تقدم بخطى متزنه، ثم ألقى السلام على الجميع .
رد الشبان التحية بأصوات جماعية يبدو عليها الحماس ، ونادى الشيخ صالحا وانتحى به جانبا بعيدا عن الجميع ثم جلس وطلب منه الجلوس ، وراح يكلمه بهدوء واتزان ..,
ـ يا صالح يا ابني .. لماذا تستفزني لأعاملك معاملة غير التي أحب أن أعامل بها ابن الحاج بشير، صديقي الذي لم يكن لي غيره في هذه القرية بل في الدنيا كلها ، إن العشرة الطويلة الأمد تفرض علي أن أكون وفيا للحاج ، ولا أستطيع أن أذهب معك بعيدا في هذه القضية التي تتعمد افتعالها ، ولماذا لا تكون عاقلا كأخيك محمد، فقد اتفقت معه على أن يقدم أوراقه للبلدية ، وبينت له حدود الأرض التي تمتلكونها ، ووعدته أن أساعده في ذلك .
لقد كان صديقي المرحوم يوصيني دائما بكم خيرا وكنت أعاهده على أن أرعى فيكم حرمة الصداقة والجوار فهل يجوز لي بعد ذلك أن أنقض عهدي مع أعز الناس إليّ ؟نعم لو كان أخوتي على قيد الحياة ، ما كنت لأكن لهم في قلبي أكثر مما أكنه لوالدك يا صالح :

بينما كان الحاج منصور يسترسل في حديثه بلهجة هادئة مشوبة بنبرة حزينة ، كان صالح مطرقا طوال الوقت ، ويومئ رأسه بالإيجاب توقيرا للشيخ وكان الحاج سيسترسل في حديثه أكثر من هذا لكن صالح هز رأسه قائلا :
ـ جزاك الله خيرا يا عمي الحاج على مشاعرك نحونا ، وأنا أؤكد بأن مشاعري نحوك ليست أقل من مشاعر الابن نحو أبيه لكنني أريد أن أفهم لماذا أنت مصر على الأوراق ... والبلدية .. ورخصة البناء ، وأنت جارنا الوحيد ، ووعدت بأنك لن تعترض بشيء على بنائنا لهذه القطعة
ـ نعم يابني ووعد الحر دين لقد بينت لمحمد حدود الأرض ووضعت له المقاييس بينكم وبيني وبينكم وبين الشارع ، ووافق عليها لأنه يعرف أنني لا بمكن أن أغمطكم حقكم ولذا فلا أحب أن تستغلوا وفائي للحاج ومعاملتي إياكم معاملة خاصة لكي تحرجوني أمام سكان القرية .
قاطعه صالح وقد تأهب للنهوض وقال بلهجة حادة :
ـ يا عمي الحاج ، إذا كنت قد تعودت أن تفرض وصايتك على سكان القرية وأملاكهم ، فلا أجيز لك أن تستغل احترامنا لك وتوقيرنا إياك لتفرض وصايتك علينا أيضا ،،، ليس أنت الذي يحدد لنا الأرض التي نملكها ، بل الوثائق هي التي تحدد ، إنها إرثنا ولن نتنازل لك عن شبر واحد مما ورثنا عن أبينا وورث أبونا عن جدنا

ـ بدأت تغضب يا صالح اهدأ الله يهديك ,, من قال لك أنني أطلب منك التنازل ، الأوراق ليست مقياسا ثابتا ، هناك معايير جدت في القرية لم تكن تخطر على بال جدك عندما كتب الوثيقة التي معك
ـ أنت تعرف يا عمي الحاج أنني لا أعترف بمعاييرك ... السلام عليكم
نهض صالح واحتقن وجهه بالغضب وتوجه نحو العوانة بحركة متوترة وقال بلهجة غاضبة
ـ الله يعينكم ،،، واصلوا عملكم ..
ولم يكن في وسع هؤلاء الأنفار الخمسة أن يصلوا بعيدا في عملهم فلم يكادوا يحفرون مواضع الحجارة الأساسية ويضعونها حتى كان التعب قد نال منهم وكانت الشمس قد أذنت بالمغيب فتوقفوا عن العمل وتفرقوا ، على موعد العودة صباح الغد .

-16-

رفعت مائدة العشاء ، ووضعت صينية الشاي ، وتحلق الجميع يتصدرهم صالح ، وابن أخته سعيد الذي لا يعتبر نفسه ضيفا على أهل الدار ، كما لا يعامله الحاضرون إلا كواحد من أعضاء الأسرة .
كانت الصافية تملأ الكؤوس بالطريقة المألوفة والمحببة عند أهل المنطقة ، فترفع الإبريق إلى أعلى وتسكب الشاي في

الكأس فيحدث رغوة ، تلك هي بصر الشاي فإن لم تكن فالشاي أعمى .

وكان صالح يكاد يكون شاردا طول الوقت بسبب خلافه مع الحاج ، هذا الخلاف الذي يوشك أن يحتد ، ويرى صالح أنه مجبر على أن يمضي فيه إلى الحد الذي يضمن له حقه ويحفظ له كرامته .

وكان سعيد يدرك هذا الشرود من خاله ، وسببه فيحاول أن يتناول موضوعا آخر يصرف إليه اهتمام خاله ويذهب عنه تلك الهواجس .

قال سعيد محاولا الحديث في موضوع بعيد عن هموم خاله :

ـ لقد توقعت أن أجدك في الوادي قبل منتصف نهار اليوم .

ـ لم أذهب إلى الوادي اليوم ، بل ذهبت إلى البياضة مع الأسرة .

ـ آه ، نسيت ..اليوم السابع ،،،زرتم قبر بشير ؟

ـ نعم كما هي العادة السائرة .

وهنا تدخلت الصافية :

ـ ولكننا لم نجد المكان الخالي الذي حدثتنا عنه يا سعيد

قال صالح متذمرا :

ـ قلت لك إنه كان موجودا

قال سعيد مندهشا :

ـ ماذا ؟؟ تقولين لم تجدوه ؟

ـ نعم ،،وجدنا مكانه قبرا .

ـ غير معقول ،، بهذه السرعة ؟
ـ نعم ،، يبدو أن مجهولا دفن في ذلك المكان .
ـ ألم تسألوا ، من مات في الأيام الأخيرة ؟
ـ لم نسمع أن أحدا ، من الأقارب أو حتى من المعارف ، مات في هذه الأيام .
ـ إذن ، فهل تساهل الناس ، فلم يعد يهمهم المكان الذي يدفنون فيه موتاهم ؟
ـ شئ مستبعد ،،ولكن غير مستحيل ،يمكن أن يتم بطريق الخطأ.
قال سعيد ساخرا :
ـ هذا أمر لا يحسن السكوت عنه !
ـ ماذا تعني ؟
ـ أعني ،،يجب أن نتابع هذه القضية ؟
ـ أتريد أن تجعل منها قضية أيضا ؟ ألا يكفينا ما نحن فيه من قضايا ؟
ـ والله إنها فعلا قضية أثارت فضولي .
ـ أنا أيضا ولكن ، ما العمل ؟
ـ يجب أن نتابعها ونرى ما إذا كان الشخص الذي دفن في المكان غريب عنا .
ـ وإذا وجدنا أنه غريب عنا ، نرفع عليه قضية :سرقة مكان قبر .
هكذا قال صالح ساخرا ، فضحك الجميع.

وجد سعيد نفسه محرجا من هذه السخرية الخفيفة من خاله ، فرأى أن يحمل الموضوع محمل الجد ، فقال لخاله متحمسا :

ـ إنك تسخر من الأمر لأنك لا تدرك الأبعاد الخطيرة التي يحملها .

ـ لقد بدأت تتفلسف،، هيا قل لي أيها الفيلسوف ، ماذا نفعل لو ثبت أن شخصا غريبا دفن في المكان ؟

ـ نرى ما إذا كانت هذه الظاهرة بدأت تعم المجتمع أو هو فعل منعزل .

ـ قلت لكم لقد بدأ يتفلسف علينا ،، وماذا بعد ؟

ـ إذا بدأ التسامح في دفن الموتى يعم المجتمع ، فمعنى ذلك أن تحولا عميقا حدث في نظرة المجتمع إلى الموت .

هكذا واصل سعيد دفاعه متحمسا ، مع علمه بالمأخذ الهازئ الذي يأخذ به خاله الموضوع.

ـ ألم أقل لكم إنه يريد أن يستعرض دراسته علينا ،، أرجوك يا ابن أختي دع دراستك للجامعة فلسنا بحاجة إليها الآن .

وهنا تدخلت الصافية :

ـ مع أني لا أفهم جيدا ما قاله سعيد ، إلا أنني أشعر أنه على حق ، عندما يعرف الإنسان أنه سيدفن قرب أناس يحبهم ويحبونه ، يموت مطمئنا . ما أحسن أن يجد الإنسان من يؤنسه في وحشة القبر !

لم يكن صالح يستطيع السهر في هذه الليلة ، بسبب ما ناله من تعب ذلك اليوم ،فأشار بذلك إلى ابن أخته الذي لم يكن أقل منه ميلا إلى الراحة ، فتأهبا ، ليذهب سعيد إلى مكانه المعهود في غرفة السقيفة ، ويدخل صالح إلى غرفته . وما كاد سعيد يضع رأسه على الوسادة ، ويندس تحت الأغطية ، حتى بدأت الأفكار تختلط وتشتبك في ذهنه بطرق بهلوانية ، ألفها كلما غالبه النعاس وغالبته الأفكار المتزاحمة على ذهنه أيضا .

وتراءى له الخندق الطويل الضيق ، الذي كان منهمكا في حفره مع العوانة ، يبقى الخندق ماثلا لعينيه المغمضتين ... الحجارة المبعثرة حوله ، أكوام التراب ..كومة الجبس الكبيرة ،،برميل الماء ، وسائل العمل ،،الرفش الفأس الفوضى العارمة ، تأخذ بخياله حينا وتجيء به حينا آخر ، تأخذه إلى المقبرة أو ما يشبهها ، وتجيء به إلى قطعة الأرض الصغيرة ،، هذا الخندق الضيق الطويل كأنه قبر طويل ،ما أطول هذا القبر !

أي إنسان يمكن أن يكون بهذا الطول ؟لعله وضع لعدة أشخاص يدفنون في سلسلة واحدة كالعقد الفريد من نوعه،عقد من الناس يذهبون في حلقة واحدة إلى مهمة واحدة إلى دار واحدة ...

الخندق الضيق الطويل يصطف أمامه الناس في شكل طابور من طوابير سوق الفلاح ،، متى تأخذ نصيبك منه ؟؟

كل شيء بالطابور ..حتى الموت ؟؟يالها من كلمة مروعة ! !
ترن في أذنه فيفزع في فراشه كأنه وقع من عل ، يعود من جديد إلى الخندق الأسود الطويل المستقيم ،، إنه الشيء الوحيد المستقيم في هذه الدنيا ..إذا جاء دورك تنال حظك منه دون زيادة و لا نقصان .

الحيوانات ترقص حول المكان الذي يبدو خاليا إلا من غدير الماء والعشب ،، كل واحد من هذه الحيوانات يرنو إلى الأمام ،، لينجو من سهم الصياد ،،ومع ذلك ، وكلما اصطاد فريسته ومزقها ، خيل إليه أنه ابتعد عن الصياد أكثر ،، يثير الغبار من تحته ومن فوقه ، وعن يمينه وعن شماله ،، يملأ الدنيا ضجيجا وعجيجا ، لكن إلى أين ؟ أين المفر ؟؟ الخندق الأسود الطويل أمامك ،،، كل واحد من الحيوانات ،،من الناس ،صياد لفريسة وفريسة لصياد ..

ما أغرب هذا المكان ! الرمال تحتضن المكان ،ومع ذلك تبتسم ينابيع الماء فيه وتلبس الآكام بردها الأخضر الزاهي ، وكلما زها سعيد وراق له الجو واطمأنت نفسه ، تراءى له الخط الأسود الطويل الذي يقسم الدنيا قسمين متساويين ، فيتساءل ،ماذا عساه أن يكون هذا الخط الأسود؟؟فيأتيه الجواب سريعا مع ذلك المخلوق الأسود الصغير الذي يقبع وراء الأكمة ...هل هو حيوان أم شجرة أم الإنسان الشاعر:

آنست نبأة وأفزعها القناص عصرا وقد دنا الإمساء

فترى خلفها من الرجع والوقـــع منينا كأنه إهبـــاء

وطراق من فوقهن طراق ساقطات تلوي به الصحراء

وهنا تذكر الصحراء العربية ، وبادية بني يشكر و شاعرها الحارث بن حلزة ،وتذكر ما أصابه بعد المائة والخمسين عاما التي يقال إنه عاشها في تلك البوادي .

-17-

استأنف العوانة عملهم صباح الجمعة ، وقد انضم إليهم عدد آخر من شبان القرية ، أشار سعيد إلى خاله أن يركز العمل على الجدار الذي يفصل بينه وبين واحة الحاج منصور ، فهو لا يعلم ما تخبئه هذه الصبيحة من مفاجآت ، ورأى صالح أن هذه الفكرة سديدة ، فالحاج منصور لا يهمه الزقاق بقدر ما يهمه الإبقاء على سطوته أمام سكان القرية ، فإذا حدث أن لم يستطع فرض مقاييسه ليتوسع قليلا على حساب جيرانه ، كان مضطرا للوصول بالقضية إلى أبعد حد .

وكان السور يوشك أن يرتفع ليبلغ منتهاه عندما توقفت سيارة بيضاء قرب البيت ، وترجل منها محمد وتوجه مباشرة إلى العوانة ليأمرهم بالتوقف عن العمل

وهرع إليه أخوه صالح مستفسرا ، فأجابه بحدة غير معهودة، داعيا إياه إلى ضرورة التوقف عن هذا العمل

الصبياني ، الذي لا يقدر ما ينجر عنه من عواقب وخيمة .لكن صالحا ابتسم ساخرا ، وعبر عن استعداده لتحمل النتائج ، لكن محمدا أصر على أمره العوانة بالتوقف ، معربا عن عدم استعداده لتحمل النتائج معه،
فقد أرسل إليه الشيخ منصور منذ البارحة ، طالبا منه أن يوقف أخاه عن العمل ، أو يجد نفسه مضطرا إلى دعوة رجال الدرك من بلدة الرباح المجاورة ، وتسجيل محضر ورفع دعوى قضائية ضدهما معا ، وكان محمد سيحضر منذ البارحة ليوقف أخاه ، لكن أسبابا قاهرة أخرته ،وقد أبدى محمد أسفه الشديد عندما رأى السور قد ارتفع ، وأدرك أن لا مناص من تحمل نتائج تهور أخيه ، وأخذ يفكر فيما ينتظره من وقوف أمام المحاكم ، وجري وراء المحامين وتسخير جزء من وقته وماله لذلك، وقد كان يتمنى أن يظل طول حياته بعيدا عن مصالح العدالة ! ! وراح يلتفت يمينا وشمالا كأنما يبحث عن مخرج من هذا المأزق ، وليته من أجل شئ ذي قيمة ،قطعة الأرض كلها في النخلة لا تساوي شيئا فكيف بالأمتار التي سينازعان فيها الحاج منصور ،
وهنا توقفت سيارة اللندروفر وترجل منها جنديان ببدلتين خضراوين ، يحمل أحدهما رزمة من الأوراق ، وهرع إليهما كل من محمد وصالح ، سأل أحدهما بلهجة صلبة غريبة عن المنطقة :
- أين محمد بالأخضر ؟

ـ أنا محمد بالأخضر .
ـ أنت متهم بالبناء بدون رخصة .
ـ لا شأن له ، أنا الذي بنيت هذا الجدار
هكذا تدخل صالح ، فسأله الدركي :
ـ من أنت ؟
ـ أنا بالأخضر صالح .
ـ أنت أيضا معه .
ـ ولكنه لم يكن هنا ، وجاء منذ قليل فقط ، أنا المسؤول عن كل شيء .
ـ سأسجل كلامك في المحضر .
ومضى الدركي يسأل كلا من الرجلين على حدة ، ويكتب على الأوراق البيضاء التي وضعها أمامه على مقدمة السيارة، وأخيرا طلب من الرجلين أن يوقعا على تعهد والتزام ، بعدم مواصلة البناء إلى حين صدور حكم المحكمة .
وعاد الدركيان أدراجهما إلى مدينة الرباح ، وتركا الوجوم يخيم على قطعة الأرض الصغيرة،ومن عليها .
ـ كان الحاج يريد أن يتفادى حدة النزاع ، فطلب مني أن أوقف العمل ، لكنني تأخرت كثيرا فوجد نفسه مضطرا إلى ذلك .
هكذا قال محمد بلهجة تحمل كثيرا من الأسف ، وكأنما يريد أن يلتمس عذرا للشيخ ، ويريد أن يحمل نفسه وأخاه المسؤولية ، وخاصة صالح الذي لم يكن يقدر العواقب حق قدرها .فقد كان يقدر أن الأمور ستنتهي عند الشرطة البلدية

المعطلة يوم الجمعة ، ولم يكن يتوقع أن الشيخ سيلجأ إلى الدرك بالرباح.
قال سعيد بلهجة المنتصر :
ـ ومع ذلك فقد حدث ما كان يخشاه
ـ لا تكن ساذجا ،، المحكمة لن تقيم لهذا الجدار وزنا ،، ستقضي بهدمه لو أرادت
هكذا رد محمد متذمرا
ـ حتى تقضي المحكمة ، يقضي الله ما ليس في الحسبان .
هكذا رد صالح ، كأنما يريد التخلص من الموضوع برمته .
توجه صالح بالشكر إلى الشباب المتطوعين وقدم لهم طبقا كبيرا مملوءا بتمر الغرس ، في كتل متراصة، وإناء كبيرا مليئا باللبن . كان النهار قد انتصف عندما انصرف الجميع ، وشرع صالح ومحمد وسعيد يتأهبون لصلاة الجمعة ، فأصلحوا من شؤونهم ، وعزموا على الذهاب إلى جامع سيدي العيد في مدينة البياضة، لأداء صلاة الجمعة والتبرك بهذا المسجد وأولياءه الصالحين ، والدعاء إلى الله أن تكون العاقبة خيرا .
أتم ثلاثتهم صلاة الجمعة وما يتلوها من أذكار وأدعية ، ثم خرجوا من المسجد في سكينة ووقار ، ولما كان الباب الأخضر الكبير للمقبرة لا يفصله عن باب المسجد سوى الطريق المعبد، فقد أشار محمد على أخيه بزيارة الموتى

للتذكر والاعتبار ، وبخاصة زيارة ضريح والدهما الحاج بشير ، فقد تعودا على زيارته كلما كانت الفرصة سانحة .

مدوا أياديهم وجثوا على ركبهم ، وتمتموا بأدعية كثيرة ، ثم هموا بالانصراف ، لكن محمدا توقف كأنما تذكر شيئا ذا أهمية بالغة وهو يقول:

ـ قبر من هذا ؟

ـ الله أعلم .

هكذا أجابه صالح ببرود،وعندئذ تدخل سعيد بحماس:

ـ إنه المكان الخالي ،،كان هذا المكان خاليا عندما دفنا بشيرا ،،، أنت الذي تعمدت تركه خاليا ،،لا بد أن أحدا دفن هنا ! !

ـ هذا عجيب ..من يكون يا ترى؟ !

تقدم سعيد من القبر وراح يتفحصه بدقة، ثم غرف بيده حفنة من ترابه ،وقال:

ـ ألا تلاحظان معي أن هذا التراب قديم ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أنه لا يمكن أن يكون أخرج من بطن الأرض خلال هذا الأسبوع .

ـ هل تعني أن القبر كان موجودا ؟

ـ بل أنا متأكد أنه لم يكن موجودا

تدخل صالح متذمرا:

ـ يرحم والديك ،،وضح كلامك ودعنا من هذه الألغاز
رد سعيد موضحا :
ـ كومة التراب هذه ، جمعت من سطح الأرض وجعلت على شكل قبر .
ـ تعني أنه ليس قبرا ؟،،انتظر قليلا
جلس محمد القرفصاء ، وجعل يزيح تراب القبر من أحد أطرافه، ثم دعا رفيقيه إلى النظر ، وأكد كلام سعيد بقوله :
ـ قشرة الأرض لم تلمس ، المكان لم يحفر ، ياله من فعل عجيب !
ـ من ترى أقدم على الفعل السخيف ؟
ـ أنت تراه سخيفا.
هكذا استجاب سعيد بسرعة .

عاد صالح إلى النخلة ، أما سعيد وخاله محمد فقد قفلا راجعين إلى الوادي ، وفي الطريق ، راح سعيد يفكر في أمر القبر المزيف ، ويجول في ذهنه بين الناس ...من عساه يقدم على هذا الفعل الغريب ؟ واستقر رأيه على أن الحاجة مسعودة كانت أكثر الناس لهفة على هذا المكان ، وهي امرأة غريبة الأطوار، فلم يستبعد أن تكون قد قامت بهذا العمل، وقرر بينه وبين نفسه أن يسألها في ذلك حين يلقاها .

-

-18-

لم يكن حادث الأمس ، بالنسبة إلى صالح، ذا خطر كبير ، فقد تعود بحكم شغله ، سائق سيارة أجرة غير مرخصة أن يواجه رجال الدرك ،والشرطة ،وحتى المحكمة . فقد حررت ضده عدة محاضر ، حجزت سيارته مرتين وسدد عددا كبيرا من المخالفات الفورية، كما تقدم ثلاث مرات إلى مصلحة الجنح بالمحكمة ، وهو دائم التوقع لهذه الحالات طالما اختار أن يكسب قوته من طريق لا تسمح به قوانين الدولة .

ومن هنا فهو لا يعتبر حادث الأمس إلا كواحدة من الحالات الكثيرة التي يتعرض لها ، لذلك لم يهتم للأمر كثيرا ولم يحسب له حسابا إلا كأمر من مألوف العادة . لكن هناك شيئا لم يتوقعه ولم يتعوده ، فقد تلقى استدعاء كتابيا من رئيس بلدية النخلة ، طلب منه الحضور في أقرب الآجال ، لأمر يهمه ، ذلك هو الشيء الوحيد الذي يشغل باله ويثير فضوله ، مع إحساسه أن هذا الأمر لابد أن تكون له علاقة بحادث الأمس.

توجه رأسا إلى مقر البلدية ، وسأل عما إذا كان الشيخ موجودا ، فقيل له إنه سيحضر بعد ساعة.وأمضى تلك الساعة في الحديث مع الحارس الخارجي ،فقد كان يساعده على تقليم النخلات التي تزين ساحة البلدية، وكان من الطبيعي أن يكون الحديث حول حادثة الأمس فقد تسامع الناس في القرية بأن الحاج منصور أحضر الدرك لتوقيف صالح عن بناء قطعة أرض له ، سيما وأن رجال الدرك لايزورون القرية إلا نادرا

دخل المكتب فاستقبله شيخ البلدية هاشا باشا ، فهو يعرفه جيدا ، سكان القرية كلهم يعرف بعضهم بعضا جيد المعرفة .أخبره شيخ البلدية بأن رجال الدرك زاروا القرية ، هذا الصباح ، وقدموا له نسخة من معاينتهم للقضية ، كما أخبروه أن الحاج منصور رفع دعوى ضد صالح متهما إياه بالبناء في أرضه.

وقال رئيس البلدية إن من حق البلدية أن ترفع دعوى بسبب البناء دون رخصة ،ومادامت القضية بأيدي مصالح العدالة ، فلم يعد هناك جدوى من رفع قضية أخرى .إلا أن البلدية لن تستجيب للطلب الذي قدمه أخوه محمد قبل أيام ، إلى حين صدور الحكم .ثم قدم له ملفا يتضمن له الوثائق والطلب الذي قدمه أخوه محمد.

تناول صالح الملف ، وأطرق مفكرا ... كيف أن محمدا قدم هذا الطلب دون علمه،؟ وكيف أن الظروف تأبى إلا أن تحتد المواجهة بينه وبين جاره . وكان سيسبقه لسانه ليقول لشيخ البلدية إن الحاج منصور لا يعترض على الطلب الذي قدمه محمد ، لأنه اتفق معه على حدود الأرض .إنها طويلة من دون عرض ومع ذلك يصر الحاج منصور أن ينقص منها بضعة أمتار لتصبح على شكل قبر .

أخذ صالح الملف ، وهو يشكر بقلبه ولسانه شيخ البلدية ، إذ لم يكن يعلم ما كان يدور في ذهنه من أفكار .

ومضى صالح يسعى في الأرض ،كما كان ، لا يعكر صفوه إلا فتور العلاقة بين بيته وبيت الحاج منصور ، تلك

العلاقة التي كانت حميمة سادها برود شديد ، حتى الحاجة تبر لم تعد تجتمع كعادتها مع الصافية على أعمال الصوف وتسدية المناويل ، وصارت فطومة تنتهر البنتين كلما علمت أنهما كانتا في بيت الحاج منصور ، أما إذا وجدت عندهما قطعة حلوى جاءتا بها من عند الجيران ، افتكتها من أيديهما وربما ضربتهما .

ومع كل ذلك فلم يكن صالح يتوانى عن مبادرة الحاج منصور بالتحية كلما لقيه .

مر على تلك الحال بضعة شهور ، وقد اتصل صالح بمراسلتين من المحكمة،أجاب على كل واحدة منهما بالإجابة نفسها ، مبينا حدود قطعة الأرض... عشرون مترا على تسعة أمتار ،،طول بلا عرض ،تقريبا على شكل قبر ،ثم يدعم مراسلته بنسخة من عقد الملكية أو ما يصطلحون على تسميته بالعدالة، لكن هذه العدالة لا تكفي لإقامة العدالة بينه وبين جاره الشيخ.

فالحاج منصور مصر على إقامة شارع بين واحته وبين أرض صالح ، ومصر على أن يكون الزقاق مناصفة بين أرضيهما ،ومصر كذلك على أن يبدأ صالح بنفسه فيترك لجاره الشارع.

☆ ☆

-18-

كان سعيد قد نسي أو كاد ينسى كل الأحداث التي ارتبطت في ذهنه ب(النخلة)، تلك الأحداث التي أثرت كثيرا في نفسه وملأت عليه عطلة الشتاء ، فقد مضى على ذلك سبعة شهور كاملة ، قضاها بعيدا عن(النخلة) ، وأكثرها بعيدا عن منطقة سوف التي سجل على كثبانها الذهبية أغلى وأعمق ذكريات طفولته وشبابه.

وكان يستعد مرة أخرى لمغادرة هذه الربوع ، والعودة إلى المدينة الجامعية البعيدة ،وكان يجول في سوق التمور حتى يأخذ معه بعض ما تمتاز به المنطقة ، كأنما لا يريد أن يبتعد عن هذه الأرض الفقيرة الغنية الشحيحة السخية ،وكلما خشي أن ينقطع حبل الوصل بينه وبينها ، فتح جعبته وتذوق من حلاوتها ،أحس كأن لم يغادرها .

وقف سعيد أمام بضاعة من أجود ما في السوق ، وسأل الشاب الواقف خلفها ، وكان ذلك الشاب الوسيم يجيب سعيدا ويستطرد في تصنيف البضاعة ،وتعديد أسعار كل صنف منها ،لكن سعيدا لم يسمع كلمة واحدة ، بل سمع لكنه لم يع شيئا مما سمع ، فقد كان يتفرس في وجه ذلك الشاب ، ويغيب طويلا في عمق ذاكرته باحثا بين خباياها عن نظير لذلك الوجه .وكان يهم بمغادرة المكان آسفا على ضعف ذاكرته عندما لمعت في ذهنه فجأة صورة خاطفة عن قرية النخلة ،ومر شريط سريع من الأحداث المرتبطة بها .لكن سعيدا لم يفلح في العثور على موضع لهذا الوجه

الوسيم في ذلك الشريط لخاطف. وبجرأة غير معهودة، اعتذر سعيد للشاب ثم سأله:

ـ اسمح لي يا أخي ....ألست من النخلة ؟

ابتسم الشاب وهو يشير إلى باب السيارة و يقول:

ـ لا حاجة بك إلى السؤال؟

التفت سعيد مبهوتا إلى باب السيارة يا لنباهته ! كيف لم ينتبه لهذا ؟ ((بن عمارة منصور فلاح النخلة ولاية الوادي)).

لمعت عينا سعيد وهو يهتف :

ـ عمار ! !

أسقط في يد عمار .. وارتبك وقد أدرك أن ذلك الشاب ليس غريبا عنه ..ثم أجاب محاولا أن يشعر سعيد أنه يعرفه :

ـ أهلا وسهلا ! !

ومد كل منهما يده مصافحا ..وقال سعيد :

ـ ألم تتذكرني ؟ لك العذر في ذلك ..أنا سعيد .. جاركم صالح هو خالي ، هل لديك متسع من الوقت لأسألك عن أحوال جيرانك؟

وتذكر عمار الشاب سعيد ،، ذلك الشاب المتحمس مع خاله صالح في بناء السور ليحيط الأرض الصغيرة،،نعم إنه هو ، وابتسم عمار ،ومد يده مصافحا مرة أخرى ،،

ـ أهلا وسهلا ،،لقد تذكرتك ، وهل يمكن أن أنساك ؟

سأل سعيد :
ـ كيف حال والدك الحاج منصور ؟
ـ بخير إن شاء الله ،الحمد لله .
ـ وكيف حال جارك صالح ؟
ـ بخير لا بأس عليه
ـ وكيف أخبار عمتك حورية ؟
وهنا بهت الشاب ،ورد مندهشا :
ـ ماذا؟ أتسألني عن عمتي حورية؟كيف تعرفها ؟
ـ أعرفها جيدا ،وأعرف حتى قصتك مع المرحومة ابنتها .
ـ آه لقد شغلتني ،الحديث هنا غير مناسب ،،هل يمكن أن نلتقي في منتصف النهار في مقهى الأصيل ؟
ـ نعم بكل سرور، ستجدني هناك قبل الموعد.
جلس الشابان إلى الطاولة يحتسيان الشاي
ـ من أين أبدأ يا صاحبي ؟ لست أدري .
هكذا قال عمار بعد إطراق طويل، ثم أرسل تنهيدة من العمق
ـ أفضل أن تبدأ من علاقة الحاج منصور بأخوالي،،إلى أين صارت ؟
ـ كانت علاقتنا بصالح ، ومن قبله بوالده الحاج بشير ، من أحسن ما تكون العلاقة بين الجيران ،وكنت أتمنى ألا يعكر صفوها شيء بسبب حطام الدنيا ، ولكن مع الأسف ، جرت الرياح بما لا تشتهي السفن .والله يا سعيد ، لاشيء أعز على الإنسان من العلاقة الإنسانية الطيبة بينه وبين

أخيه ..هل يعقل أن يستباح الغالي النفيس من أجل نزوة جامحة؟ أنا أعترف لك يا سعيد بأن والدي سامحه الله كان السبب الرئيسي فيما حدث، وهكذا كان دأبه منذ أن عرف الدنيا ، وهكذا يعرفه الناس في(النخلة) ومنهم خالك .لهذا فاللوم يقع أيضا على خالك لأن الحاج منصور ليس غريبا عنه.

سكت عمار وأشعل سيجارة ،ثم سادت فترة صمت ، وأخيرا تكلم سعيد:

ـ أما كان على الحاج أن يقمع نزوته ولو مرة في حياته عندما يتعلق الأمر بجيران أعزاء ؟

ـ أنا وأنت نقول كان عليه ، أما هو فلم يتعود على شيء من هذا في حياته أبدا ، ولذلك فهو في أسوء أحواله.

ـ كيف ؟

ـ إنه يعاني صراعا عنيفا ، إنه يتعذب بسبب العزلة التي فرضها على نفسه ، لم يعد له خيط واحد يصله بالناس ، بعد أن عرفت القرية أنه أصبح خصيم أبناء الحاج بشير ، صديقه القديم،، أو على الأقل هكذا يخيل إليه،إنه على وشك الانهيار ..لقد تغير والدي بسبب هذه القضية التافهة ، هو الذي أثارها ، وهو الذي يتعذب بسببها ، لقد أصبح دائم الصمت ، دائم الوجوم ، لا يتكلم إلا قليلا ، لقد حاولت مع والدتي أن نقنعه بالتراجع،حتى يرتاح ويريحنا ، لكنه لم

يتعود على التراجع ،، لم يتراجع مرة واحدة في حياته في هذه القضايا.
كان عمار يتكلم بنبرة حزينة؛ وهو يفضي إلى سعيد بهذه المشاعر ،وكأنما وجد متنفسا ، أو كأنما يحاول أن يجعل سعيدا يتعاطف معه،سكت عمار برهة ، ثم رفع رأسه وقال :
ـ ولكنك لم تقل لي كيف تعرفت على عمتي حورية؟
ـ لقد لقيتها صبيحة العرس ،وذهبت معنا إلى الوادي ،وجلست معها طويلا ،في محطة المسافرين، حتى ركبت الحافلة المتوجهة إلى تونس .
قال عمار بلهفة:
ـ وماذا ؟
أجاب سعيد :
ـ حدثتني عن كل شيء
امتقع وجه عمار وقال متثبتا :
ـ عن كل شيء ؟
أجاب سعيد مِؤكدا :
ـ عن كل شيء ،، من حادث المرور بنفطة ،إلى ذهابها إلى تونس بعد زواجك الأخير.
أطرق عمار طويلا، وارتشف قليلا من الشاي ، وأشعل سيجارة أخرى، ثم قال بنبرة يبدو عليها شيء من التردد :

ـ أنت يا سعيد شاب مثقف ، قال لي خالك إنك تدرس في الجامعة فلعلك تفهم أكثر مني في هذه المسائل، ألا تستطيع أن تدلني ،لو كنت في مكاني ، كيف تتصرف ؟
قال سعيد متحمسا:
ـ أسعى لإعادة حورية إلى البلاد
ـ زرتها بعد زواجي الأخير ، وحاولت إقناعها بالعودة ،لكنها رفضت
ـ لا بد أن تسعى معها لاسترداد حقوقها المادية فهو السبيل الوحيد إلى عودتها .
ـ ما الذي جعلك تفكر هكذا ؟
ـ أبوك اعترف بأنها أخته، وما دعاه إلى التنكر لها من جديد إلا خشيته من مطالبتها بحقوقها في الميراث ،خاصة وقد ماتت ابنتها التي لم تعد تخاف عليها من أن تكون ضحية غضب الحاج ،لو طالبت والدتها بحقوقها .
ـ أتظن ذلك حقا ؟
ـ بكل تأكيد ، لم يعد لعمتك حوافز قوية للعودة، أما عندما يثبت أنها عمتك وأن لها حقوقا في ممتلكاتكم ، لم يبق للحاج ما يبرر التنكر لها ،ولم يعد لها ما يبرر البقاء في تونس .
ـ والله يا سعيد لقد ارتحت لك كثيرا ، وأحس كأنني أعرفك منذ زمن ،وأجدني أفكر في أن أستودعك سرا ،، ولكن...
ـ لا تخف يا عمار ،، ثق في صديقك الجديد ،، سرك مكتوم ..

ـ لقد عثرت على ورقة بين وثائق والدي ، ولا شك أنه حازها مع بقية العقود والوثائق من حياة جدي الحاج مبروك والد حورية وهذه الورقة لو استعملتها حورية لحازت على كل حقوقها في الميراث ،

قال سعيد بلهفة:

ـ وثيقة خطيرة لهذه الدرجة ؟ ما هي؟

ـ نسخة من عقد الزواج ، زواج مباركة بنت غادة من جدي الحاج مبروك.

ـ هذا شيء رائع ! ! لا بد أن تساعد عمتك وتستعمل هذه الوثيقة ! !

هكذا قال سعيد بحماس واندفاع .. لكن عمارا كان ينظر إليه بعينين يائستين ،وقال بلهجة متراجعة:

ـ لا أستطيع أن أفعل شيئا من هذا القبيل ،

وسكت قليلا ثم أردف :

ـ إنه على وشك الانهيار يا سعيد لست أدري ماذا سيحدث له لو رفعت حورية ضده قضية أخرى .

ـ لا شك أن الصدمة ستكون شديدة عليه ،

وسكت سعيد برهة ، ثم أضاف في لهجة هادئة :

ـ لكن الصدمة ليست دائما ضارة ، قد تكون صدمة تعيده إلى الواقع ..أمراض كثيرة يعالجها الطب الحديث بالصدمات الكهربائية.. إن هذا الذي يعانيه أبوك تشنج

نفسي ، مثل التشنج العضلي تماما ،، ولذلك فإن الصدمة ، قد تعيد له حالة الاسترخاء .
ـ أنا أفهمك يا سعيد ..ولكنه سينهار ..
ـ ربما لن ينهار إنما ينزل إلى الأرض ،كما أن هناك مشكلة أخرى ...عمتي لا تقبل بالعودة،سيما إذا كانت ستعود لتقف ضد أخيها أمام القضاء .
فكر في الموضوع جيدا يا عمار..وستصل بلا شك إلى حل مناسب.

** 20***

عمار كما يعرفه الناس وينادونه ، أو عمارة كما مقيد في الوثائق الرسمية،شاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وسيم الطلعة ، دمث الطباع ، متعلم ، يحبه كل من يعرفه.
مع أنه يعرف أن سكان النخلة يحبونه ، فهو يتألم كثيرا لأنه يعرف أيضا مشاعرهم نحو والده . وكلما سمعهم يعرضون به ،غاضه ذلك ،ولا يستطيع أن يدافع عنه،ولا يستطيع أن يواجه الناس ، بل كان يتظاهر بعدم السماع أو عدم الفهم .

ترك عمار الثانوية وتفرغ لمساعدة والده ، وحاول كثيرا الإمساك بزمام الأمور كلها ،وإبعاد والده عن الخصومات والمشاحنات مع الناس
لكنه فشل فشلا ذريعا ، فوالده لا يزال قويا جلدا ، حاد الذهن ، قادرا على متابعة كل صغيرة وكبيرة ،ولم يكن عمار أكثر من مساعد يأتمر بأوامر والده ،في كل شيء ، وينزل عند رغبته في كل شيء .

وهكذا ظل مكتفيا بالسخط على طباع والده ، وكلما حدث شيء كالذي بينه وبين صالح ، اكتفى بقوله ((الله يهديه)) .

أما عمته حورية ووضعيتها الغريبة عن أسرتها وعن بلدها ، فقد شغلت باله أكثر من أي شيء آخر ،لقد أرقته أرقا شديدا ، وأرهقته رهقا شديدا ،لذلك آل على نفسه ألا يرتاح ولا يهدأ له بال حتى يعيدها إلى كنف الأسرة ،، وقد بذل في ذلك ما وسعه.
وقد أحب ابنتها ليلى حبا شديدا ملأ عليه حياته بعد أن كانت خاوية ، وأحب عمته أيضا ، ونجح في الزواج من ليلى ، ولم يكن من السهل على شيخ مثل الحاج منصور مشدود إلى عاداته المتحجرة بحبال صلبة أن يقبل بتزويج ابنه من فتاة تونسية غريبة، ومع ذلك فقد نجح عمار في أن يظفر بفتاة أحلامه،وفي أن يقرب عمته .

غير أنه ، وبعد الفاجعة الأليمة ، التي أودت بزهرة شباب زوجته ، أعرضت عنه الأيام وقلبت له ظهر المجن ، وعاش عمار في دوامة شديدة كادت تقذف به إلى المجهول ، واختلط عليه الأمر فلم يعد قادرا على التركيز والتدبير ، وظل حينا من الدهر يمشي سبهللا دون أهداف واضحة .
ولم يبدأ في استرداد حياته الطبيعية إلا بعد عدة أشهر ، فتذكر حورية وشد رحاله إلى مدينة نفطة حيث زارها في بيتها فوجدها في حالة يرثى لها .
الطفل الذي كان يساعدها على مصارعة الحياة لم يعد قادرا على ذلك بعد أن ألم به مرض منذ الفاجعة وأنفقت كثيرا لعلاجه ، وساعدها عمار ببعض المال في شكل هدايا حفاظا على مشاعرها . ألح عليها في العودة ،ووعدها بالحرص على علاج الطفل . لكنها أصرت على البقاء .وظل عمار بعد ذلك في حيرة شديدة ، لايجد مخرجا من أزمة عمته التي هي أزمته بلا شك حتى أن زواجه الأخيرلم يكن أكثر من تلبية رغبة ملحة لوالده ومحاولة للهروب من حالته النفسية الحزينة التي يعيشها بعد المرحومة .
وعندما لقي سعيد وتحدث معه أحس بشيء من الراحة لا يدري سببها ، ربما لأنه وجد من ينشغل معه على حورية ، وقد وقع الشاب سعيد من قلبه موقعا حسنا فأحس أن حرارة الحماس الذي يبديه سعيد مصدر جديدا للطاقة تؤازره وتدعم قدرته على التفكير .وهكذا عبر عمار لصديقه الجديد عن سعادته بالتعرف عليه وطلب منه أن يتصل به كلما

استطاع إلى ذلك سبيلا وان يزوره في النخلة كلما زار أخواله.

21** ****

السيارة تنساب بسرعة فائقة على الطريق الأسود الطويل الممل ، يتلوى حينا ويتمطى أحيانا بين أراض رملية ذهبية شاسعة ، تتخللها كثبان شاهقة ،وتنتشر في أرجائها شجيرات متفرقة لنبات الحلفاء ، كأنها لمسات فنية للوحة بديعة ، خلفيّتها سماء شديدة الزرقة .

في سيارة الأجرة ، ذات المقاعد الثلاثة، يسود الصمت المطبق ، حيث لا تكاد تسمع إلا دوران العجل على حصى الطريق المعبد ، أو تنهيدة ملل هنا وأخرى هناك .

استلقت حورية في المقعد الخلفي ، وارسلت ظهرها إلى الأمام فبالغت في الاستلقاء. وكانت تضع رأسها على ظهر المقعد اللين، وتغمض عينيها ، فيخيل إلى من يراها أنها تغفو إغفاءة طويلة،لكنها تفتح جفنيها بين الحين والحين، وتداعب بأصابعها شعر الطفل الذي يضع رأسه على ركبتها .

لقد كان هذا الطفل كل أملها ، بعد أن انقطعت عنها كل أسباب العيش الكريم،وكانت تعتمد عليه في كسب لقيمات يقمن صلبه ، فكان يعمل في حقول المزارعين ، لاسيما في

فصل الخريف ، ومع ذلك كانت شديدة الحرص على ألا ينقطع عن دراسته .فتساعده كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ، فتترك الأعمال التي تقوم بها في مساعدة بعض صاحبات البيوت الكبيرة مقابل غذاء أو كساء أو قليل من النقد، وتنصرف إلى المزارع وتقوم مقامه .

لكن الطفل أصيب بالحمى الخبيثة ، فكادت تودي بحياته ، فأنفقت كل مدخراتها من أجل علاجه ،واضطرت إلى أن تستدين ،وظلت تحرص على علاج الطفل حتى تماثل للشفاء ، لكن ديونها تراكمت ،فلم تجد لتسديدها حيلة ولا وسيلة إلا أن تبيع البيت ،وعندها لن تجد لها مأوى ، وهكذا وجدت حورية نفسها في ضائقة عسيرة، حتى فكرت في أن تستجيب إلى دعوة ابن أخيها عمار الذي كان دائما يلح عليها في العودة إلى البلاد .لولا خشيتها من مواجهة أخيها الحاج منصور ، فهو لا يتورع عن طردها ، وهي لن تحتمل جرحا بهذه الخطورة .

لكن البرقية الأخيرة التي أرسلها عمار والتي ألح فيها، مرة أخرى ، على عمته بالعودة ، كانت تحمل شيئا جديدا ؛ لقد أخبرها بأنه عثر على شاب يسكن قرية بعيدة من قرى وادي سوف ، لجأ والده إلى تونس إبان الثورة ، وأقام في بلدة نفطة مع شقيقته ، ثم عادا إلى البلاد بعد الاستقلال ،وكان لشقيقته هذه بنت تزوجت في مدينة نفطة من رجل تونسي ومكثت هناك ولم يعد يعرف عنها شيئا ، وكان هذا الشاب يسمى الجموعي بن سالم بن غادة وفرحت

حورية فرحا شديدا عندما أيقنت أن لخالها سالم ولد يعيش وهي التي أنفقت عمرها تحلم بسبب واه يشدها إلى الأرض وها قد تعزز وجودها بهذا الشاب الذي لا يقل مقدارا عن أخيها طالما كانت ولا تزال تعتبر خالها سالما أباها الذي رباها وشقي من أجلها وأمدها بما تحتاج إليه من أبوه وعطف ورعاية ، وهكذا لم تتماسك حورية وقررت العودة واضطرت إلى الاستدانة من جديد ولم يكن من السهل أن تجد من يدينها كل مرة فرهنت البيت وها هي تعود إلى البلاد وفي ذهنها تتضارب الأفكار ، في بحث يائس عن مخرج لهذه الضائقة الخانقة وتفكر في اللجوء إلى أخيها والتوسل إليه لمساعدتها لكنها تعلم أن أخاها ليس سهلا ، وتفكر أن تطرح معضلتها على عمار لعله يحتال لها عند والده ، لكنها وكلما استرسلت في أفكارها وصلت إلى طريق مسدود ، فترسل تنهيدة حارة قوية .

وبدأت السيارة تقترب رويدا رويدا من الناطق المأهولة تتبعثر فيها المباني على غير نظام وتتبعثر الواحات والمزارع أيضا على غير نظام وراحت حورية تفكر في الوصول إلى موطنها وتسائل نفسها هل بإمكانها أن تتوجه رأسا إلى بيت أخيها ؟ وتنزل عنده ضيفة ريثما تجد ابن خالها ، لكنها وجدت في ذلك حرجا شديدا فهل تستطيع أن تقابل أخاها بعد أن تنكر لها وهي تهنئه بزواج ابنه وبدأت تفكر في حيلة تجنبها هذه المواجهة في البداية على الأقل حتى ترى رأي عمار

وفكرت في أن تنزل ضيفة عند أهل الحاج بشير فهم أقرب الناس إلى أسرة أخيها ، وإنها تعرف الصافية حق المعرفة إنها امرأة طيبة كريمة ، لا تتوانى عن تقديم خدمة لها واطمأنت نفسها قليلا لهده الفكرة .

وصلت السيارة إلى المدينة ، وسألها السائق :

ـ أين تذهبين يا الحاجة ؟

فطلبت منه أن ينزلها عند محطة السيارات المؤدية إلى البياضة ، وفعلا فما هي إلا ربع ساعة ،حتى كانت حورية تنزل مع ابنها أمام الباب الأخضر الكبير : باب مقبرة البياضة

******* 21 ******

من حسن حظ حورية أن الحاج منصور كان في الواحة حين أقبلت على أهل البيت ، استقبلها عمار بحفاوة بالغة، وطلب من زوجته أن تعد لها طعاما ومشروبا .

انتحى بها ناحية ،وراح يسر إليها النجوى ،محاولا التخفيف من حرجها الذي يبدو بوضوح على حركاتها وسكناتها . وخيرها بين أن تنزل بيتا خاصا مع ابنها وبين أن يهيئ لها بيتا لها غرفة في البيت الكبير مع الأسرة .

ولم تكن البديهة الصائبة تنقص عمارا ليدرك رغبتها التي تستحي من أن تعبر عنها .

فلم يحن موعد عودة الحاج منصور من الواحة ، حتى كانت حورية تقيم مع ابنها في البيت الصغير . البيت القديم

الذي بحمل أعلى ذكريات طفولتها البريئة ، البيت الذي أقامت فيه مع والدتها مباركة بنت غاده بعد وفاة والدها الحاج مبروك بن عماره وكانت ستحضر إلى البيت الكبير في المساء لتسلم على أخيها ، لكن وعثاء السفر أثقلت كاهلها .فما كادت تنتهي من أداء صلاة العشاء حتى أدركها نوم عميق ثقيل اسلمها بسرعة مذهلة إلى صباح الغد . حين استيقظت على رنين زغرودة عالية في بيت أخيها الحاج منصور ، متبوعة بأخرى وأخرى ...
قامت حورية وتوضأت وصلت الفجر وأيقظت ولدها وأصلحت من شأنه ، وهرعت إلى البيت الكبير تهنئ اهل الدار بالمولود الجديد ،وتسأل عما إذا كان ذكرا أم أنثى ،وتعبر عن فرحتها العارمة ، فالشاب عمار حبيب إلى قلبها ،وفرحته من فرحتها وسعادته من سعادتها . وما أن تجاوزت عتبت البيت حتى علمت أنه ولد ذكر ،فأطلقت العنان لزغاريدها الحلوة الرنانة ترسلها مطولة الواحدة تلو الأخرى .حتى لفتت انتباه الحاضرات في البيت في تلك الصبيحة السعيدة فزغاريد النساء التونسيات أحلى وأعذب وأحسن تنغيما من زغاريد نساء المنطقة .
وكانت العجائز تتزاحمن على غرفة السقيفة ،تتنافسن في تهنئة الحاج منصور ، وانتقاء أجمل عبارات المباركة والدعاء للوليد بأن يجعله من حملة الستين . وكان الحاج منصور متكئا بمرفقه على الوسادة ، مسندا ظهره إلى الجدار ،يفرقع بين أصابعه حبات السبحة ، ويرد على المهنئات بأسارير

منبسطة ووجه بشوش ، وصدر منشرح حتى دخلت حورية التونسية كما يعرفها الجميع ، وأرسلت زغرودة من زغاريدها الجميلة المنغمة و هتفت بلهجتها التونسية اللينة .
ـ مبروك على وليد خويا .. رب يجعله من حملة الستين
وأقبلت على أخيها تسلم عليه وتقبل يده ورأسه إنها فرسه سانحة
لاستدرار عطف أخيها وتليين قلبه .
ولم يكن الحاج أقل منها ابتهاجا ، ولا أقل انشراحا ولا أقل حفاوة
فسلم عليها بحرارة وسألها عن حالها وحال ولدها . ودعاها للجلوس بجانبه .
سألت حورية أخاها منصور :
ـ ماذا نسمي وليدنا العزيز
رد الحاج على الفور
ـ انه بشير ... لقد قطعت على نفسي وعدا أمام إمام الجامع ، ليلة عقد القران
جعله الله بشرى خير للجميع .. إنه وفاء منك لصديقك الحاج بشير .. هذه خصلة لم يعد يتمتع بها في هذه الأيام إلا أحباب الله
ـ أول من فقد هذه الخصلة .. هم أبناء الحاج بشير أنفسهم .. الله غالب .. نحن في آخر الزمان
ثم أرسل الحاج تنهيدة من العمق ، تعبر عن عميق الأسف ..

ثم سأل مستدركا :
ـ لكن .. لماذا لم أرك البارحة ، لقد أخبرتني الحاجة بقدومك منذ عشية أمس
ـ كنت سأحضر .. لكن التعب قهرني .. أنت تعرف تعب السفر ، وتعب الانتظار عند الجمارك أشد ,, ثلاث ساعات وأنا واقفة على قدمي في مركز الحدود
ـ هل أنت مرتاحة في البيت التي تقيمين فيه ؟
ـ حفظك الله لنا .. بارك الله فيك .. الله يجازيك ، وراحت حورية تتمتم بأدعية كثيرة بحرج واستحياء شديدين فقاطعها الحاج :
ـ لا عليك .. لا نقوم إلا بما يمليه علينا الواجب

********** 22 *********

عمار ، سعيد ، والجموعي بن سالم بن غاده يجتمعون حول مائدة العشاء في بيت السيدة حورية ، وهي تضفي على جلستهم جوا ممتعا بطرفها وأحاديثها التي لا تنتهي ، بصوتها العذب ولهجتها التونسية الجميلة .

لقد استأنست بهؤلاء الشبان ، واستأنسوا بها ، وأحبوها لدماثة طبعها ، ولين جانبها ، وحسن معشرها ، وطراوة حديثها ،، وأحبتهم لبراءتهم ، واندفاعهم ،وبداهتهم وكرمهم .

أما عمار فكان رجل البيت الأول ، فهو من أنزلها هذا المنزل المبارك ، وأغدق عليها من سخائه وجوده ،فلم يكن يزورها إلا محملا بما تحتاج إليه من غذاء أو كساء ، أو

خضار وفاكهة ، كما أنه أوصى صاحب الدكان المجاور أن يمدها بكل ما تحتاج إليه على نفقته .

أما سعيد ،فكان الصديق المبجل الذي لا يزورها إلا لماما كلما زار أخواله في النخلة ،وكان كلما اعتزم الوصول إلى النخلة؛ عرج إلى السوق واشترى هديتين ؛الأولى للعمة حورية ، والثانية لأخواله،وربما مكث عندها أكثر مما يمكث عندهم .

لهذا كان خاله صالح كثيرا ما يعرض به ،عندما يسأله عما إذا جاء لزيارة أخواله أو لزيارة التونسية.

أما الجموعي ابن خالها ، فكأنما نزلت عليه من السماء ،فقد حرمه الدهر من الأم ، فوجد فيها الأم المثالية التي تفيض حبا وعطفا وحنانا ، وكثيرا ما كان يلح عليها في الذهاب معه إلى قرية الرقيبة والإقامة معه حيث يقيم ، لكنها تصر على البقاء في هذا البيت حيث تشدها إليه ذكريات طفولتها بحبال من حديد .على الرغم من الحرج الشديد التي تجده كلما قابلت أخاها الحاج منصورا .

وكانت حورية بين هذا وذاك تعيش في سعادة غامرة ، لا ينقصها شيء من متاع الدنيا ، فقد كانت في تونس ، تعيش في ضنك ، فأصبحت في رخاء ، وكانت بعيدة عن الأهل و الأوطان فأصبحت تمد جذورها في تربتها الأصلية .

لكن الشيء الذي يعكر عليها صفاء المزاج ، ويكدر لها صفو الحياة ، هو ذلك الحرج الشديد الذي تجده كلما طالت مدة إقامتها في البيت ، وكلما قابلت أخاها منصورا

، فقد مضى على نزولها بالبيت أكثر من ثلاثة أشهر ، وهي ترى أن أخاها يعتبرها ضيفة ، وهي ترى أن ضيافتها طالت أكثر مما ينبغي أن تكون الضيافة ، وكانت تحس برغبة شديدة في التصريح بهذا الحرج إلى ابن أخيها عمار سيما وأن عليها بتونس التزامات وديون ،وبيت مرهون . ولا بد أن تضع لنفسها قرارا ، فإما هنا ، وعلى أرضية صلبة ، وإما هنالك . ولو أنه يعز عليها أن تفارق من جديد هذه الحياة الوادعة المطمئنة .

وكان الشبان يلحظون شرود حورية بين الحين والآخر ، فيسألونها مازحين بلهجتها التونسية :

ـ اش بيك عاد؟؟

فترد عليهم بضحكة جميلة ، وتجاريهم في مزاحهم باللفظة الجزائرية :

ـ والو.. والو .

فيضحكون ملء صدورهم ويواصلون تعليقاتهم ، ونكاتهم ومحادثاتهم ومداعباتهم .

لكن الجموعي أصر هذه المرة ، ولفت انتباه الجميع ،قائلا :

ـ لا ..من غير مزاح هذه المرة ،،أنا جاد كل الجد ، لا بد أن شيئا يضايقك ولابد أن نعرفه .

فـأيـده كـل مـن سـعيد وعـمار ، ورفـعوا أيـديـهم عـن الـطعام ، واتـجهوا إلى حورية بالكلام ، وألحوا عليها بصرامة أن تبوح لهم بما يشغلها .

أطرقت حورية طويلا ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ لـقد لـحت لـك أكـثر مـن مـرة ، يـا عـمار ، لـكنك كـنت تتجاهلني ، إنني لا أستطيع أن أستمر في هذه الوضعية ، أنـا محـرجـة أشـد الحـرج إزاء والـدك الـذي اسـتضافـني فـي هذا البيت ، لكن الضيافة طالت أكثر مما ينبغي ، ولا بد من أضع حدا لهذه الوضعية الحرجة .

قال عمار متذمرا :

ـ يـا عـمتي .. الله يهـديـك .. أنـت فـي بـيتك ، ولا مـبرر لهـذا الحرج ، ألم تقولي أنك ولدت في هذا البيت ؟هو بيتك.

أجابت حورية على الفور مرتبكة:

ـ أنـت طـيب وكـريـم يـا ابـن أخـي ، لـكن الـبيت مـلك لـوالـدك ، أخشى ألا يكون رأيه من رأيك .

ـ هل كلمك والدي بشأن البيت ؟

ـ أتريدني أن أنتظر حتى يكلمني ؟

ـ لا داعي لتعقيد الأمور يا عمتي ،، دعينا من هذا الآن ..

هـكذا قـال عـمار مـتذمـرا مـحاولا إغـلاق المـوضـوع ، لـكن الجموعي قاطعه قائلا:

ـ والله إذا شـئت الـصراحـة ، مـع عـمتي الـحق ، ثـم اسـتدرك موجها كلامه إلى حورية:

ـ ولكني طلبت منك أكثر من مرة أن تذهبي إلى الرقيبة ، ولكنك مشدودة إلى هذا البيت ، أنا في أمس الحاجة إلى أم وأخ صغير ،، ما الذي يشدك إلى هذا البيت وإلى قرية النخلة ؟

تدخل سعيد قائلا:

ـ والله يا جماعة ،،دعونا نتكلم بصراحة أكثر ،أنتم تعلمون أن عمتي حورية ولدت وترعرعت في هذا البيت ، وهو ملك لوالدها ،، لذلك فإني أراه حقها المشروع ، بل أقل من حقها .

تدخلت حورية محرجة أشد الحرج وأجابت في ارتباك شديد :

ـ لا ،،لا ، الله يبارك فيك ..دعنا من الحقوق ومن هذا الكلام ..دعنا من هذا ، يرحم الله والديك ..

قال الجموعي :

ـ هذا ما يجب أن يقال بالفعل .

قال عمار :

ـ أفيدوني بحل يعيد إلى عمتي حقوقها، ويحفظ علاقتها بأخيها

قال الجموعي :

ـ تطالب بحقها بالتي هي احسن .

ـ فإن أبى ؟

ـ فبالتي هي أخشن .

ـ أنت معذور لأنك لا تعرف والدي
قال سعيد بجدية وحزم :
ـ دع نفسك جانبا ، ودع عمتك حورية – أيضا – جانبا . لا تتدخلا في الموضوع ...أنا والجموعي كفيلان بحل المعضلة وبالتي هي أحسن ..لكن عليك بتقديم مساعدة بسيطة .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ نسخة من الورقة التي معك.
تدخلت حورية بإلحاح شديد :
ـ الله يهديكم يا جماعة ،أقفلوا هذا الموضوع أنا لا أستطيع مواجهة أخي ..كل ما آمله هو أن أمكث بهذا البيت ريثما أسوي وضعيتي ،وربما قدرت على شرائه
قاطعها عمار :
ـ أبدا ،،هذا غير معقول ..لن أسمح بهذا أبدا .
تدخل سعيد :
ـ أنت لن تواجهي أخاك ..سنعفيك من ذلك ..وسنتولى ذلك بدلا منك ،، أنا واثق من أننا سننجح في إقناعه بأن يكتب لك البيت
ـ وعمتي لا تطمع في أكثر من ذلك ،،لكن ....
قاطعه سعيد :
ـ لا تقل شيئا يا عمار .. إذا كنت تحب عمتك أمدنا بتلك الورقة .

ـ مهلا يا سعيد ..لا تكن مندفعا القضايا والمحاكم لا تزيد الأمور إلا تعقيدا ،،والدي لا تفيد معه هذه الأمور
ـ أعدك وعد شرف ألا نلجأ إلى المحكمة .
ـ وماذا تفعل بالورقة إذن ؟
ـ سنستخدمها للتلويح فقط.. وعند الضرورة، والدك له خبرة كبيرة بهذه الأمور .
تدخلت حورية :
ـ رفقا بي يا جماعة ،،لم أعد أفهم شيئا مما تقولون ،وعن أية ورقة تتحدثون ،، وعن أية قضية ..الله يهديكم ترفقوا بي يا أولادي .. أنا امرأة ضعيفة بلا حول ولا طول ،، ولست في مستوى رفع التحدي في وجه أخي ..
تدخل الجموعي بحماس شديد :
ـ أنا ولدك ..وأنا حولك ، وأنا طولك ،،أنت قوية بنا جميعا ..سأضطر إلى رفع قضية إن لزم الأمر..اعتمدي علينا يا عمتي ..معك رجال ،
ـ مهلا يا الجموعي الموقف يتطلب الهدوء وليس الحماس .
ـ هكذا تدخل سعيد مهدئا الجموعي ثم توجه نحو عمار :
ـ إذا كان لديك حل آخر تفضل به،أنت تعرف أن عمتك في وضعية حرجة ،بيتها مرهون في نفطة ، وعليها ديون لا بد من تسديدها ، وآن أوان استقرارها في بلدها وبين أهلها ، وفي بيتها الذي ولدت ونشأت فيه ،،والدك يتجاهل أمرها وحقوقها ،، ماذا عسانا أن نفعل أفدنا مما علمك الله ..

وجد عمار نفسه في حرج من كلام سعيد ، ولم يحر جوابا وسكت طويلا ثم قال :
أنا معتمد عليك يا سعيد ،، سأذهب معكما تحسبا لما يمكن أن يحدث ، وستكون نسخة من الوثيقة بين يديك ، رب يوفقنا الله
ثم توجه نحو حورية وقال :
ـ اطمئني يا عمتي سيفعل الله ما فيه الخير
تنهدت حورية تنهيدة عميقة وطأطأت رأسها وقالت :
ـ الله يقدر الخير يا أولادي.. رب يهدي

24 ******* *****

ا لحاج منصور مضطرب اضطرابا شديدا ، مشتت الذهن لا يستطيع أن يركز تفكيره في شيء معين ، يعاني ومنذ مدة كثيرا من الوساوس والهواجس ، ومن الكوابيس المفزعة من النوم .
يسائل نفسه باستمرار لماذا كل هذا ؟؟
لقد كان طيلة حياته شديدا قوي العزيمة ، شهم الفؤاد فما الذي حدث ؟ .. ويجيب نفسه بسرعة : إنها الشيخوخة الحقيقية ،شيخوخة القلب ، وهل هناك شيئ آخر غير الشيخوخة ؟ ذلك ما يقض مضجعه باستمرار .
لقد ندم أشد الندم من افتعاله الخصومة مع صالح بن الحاج بشير ، إنه لايشك في أن الضعف الذي دب في نفسه

بدأ من هذه القضية التي لم يقدر أنها ستصل إلى هذا الحد .
لقد ندم أشد الندم ، وكان يصارع نفسه ، ومنذ مدة من أجل التراجع لكن طبيعته ، وأنفته وكبرياءه ، أو ما تبقى من هذه الأنفة ، وذلك الكبرياء يقاومانه أشد المقاومة .
لكنه لم يعد يطيق تلك الكوابيس المفزعة من النوم ، وهذا العذاب الممض ، انه على يقين من أن حاله لا تسر إلا العدو ، لكنه لا يستطيع أن يخرج من هذه الورطة ، دون أن يحفظ ماء وجهه على الأقل .وعلى ذلك وطن الحاج منصور نفسه ، لابد من الانسحاب ، مع الاحتفاظ بقليل من كبريائه القديم ،الانسحاب الذي يحفظ له مكانته عند أهل القرية.
وهذا ما جعله مغرب اليوم ، وبعد أداء صلاة المغرب في مسجد القرية يهتز لما يلحظ صالحا ، ويبتهج ابتهاجا شديدا عندما يبادره صالح بالتحية ،مع أن ذلك أمر معهود .. صالح ابن حلال .. على الرغم من الخلاف الشديد بينهما والذي وصل إلى مصالح العدالة ، إلا أنه لم يقصر قط في توقيره واحترامه .. ومبادرته بالتحية ...
وهذا ما جعله مغرب اليوم ، وبعد أداء صلاة المغرب يدعو صالحا وينتحي به ناحية ، في ركن من أركان المسجد ويبادره بالتمهيد المكرور والذي يكاد صالح يحفظه عن ظهر القلب :

أنت تعرف المكانة التي احتفظ لك بها ، يا ابني ، أنت تعرف مكانه والدك الحاج بشير لدي ، ورغم كل شيء ،لا أزال أعتبر نفسي والدك بعد المرحوم ...
ولم يطل الحاج في تمهيده هذه المرة .. لما لحظ من صالح تذمرا ،وتطلعا شديدا وواضحا لسماع مخ الحديث ..
ـ يا صالح يا ولدي .. إنه ليس عيبا أن نختلف أو أن نتخاصم ، المصارين في البطن تشتبك ،، لكنه من أقبح العيوب أن يصل الخلاف بيننا إلى المحاكمة ونحن من نحن قرابة .. وجوارا .. وعشرة قديمة العهد
وصداقة ومودة .. لا ينبغي أن تزعزعها العواصف مهما اشتدت .. قد يبلغ الغضب بالإنسان مبلغا يفقده الحكمة والحنكة . فيصل بالأمور إلى حيث لا ينبغي لها أن تصل ، لكنه عندما يهدأ يثوب إلى رشده، ويعود إلى المعقول ..
وتسرع صالح في التعليق على قول الحاج :
ـ وهذا ما كنت أنتظر منك يا عمي الحاج .
ـ لماذا لا نتفاهم بالحسنى ، ونعيد الأمور إلى نصابها ؟ ونضع حدا لهذه القضية ، التي لا تستحق أن تكون بين جار وجاره .
لكن صالحا شعر بخيبة الأمل ، فيما يفكر فيه الحاج ، وما ير غب فيه ..فأجاب بنبرة أسف :
ـ أنت الذي افتعلت القضية يا عمي الحاج .. تقدم إلى المحكمة وتنازل عن هذه القضية المفتعلة .. أما أنا فإني لم

أفعل شيئا ، إلا أن بنيت جدارا في أرضي ، وعلى الحدود المرسومة على ((العدالة)).
ـ يا صالح يا ولدي لنتفاهم أولا ،،
فقاطعه صالح بحدة:
ـ الله يهديك يا عمي الحاج ،،عن أي شيء تريدني أن أتفاهم معك ؟
ـ لا تكن عصبيا يا ولدي ، كل واحد منا يطرح من عنده قليلا لنلتقي في الوسط ،وهكذا تكون الحلول والتفاهم بين الناس .
ـ ليس لي شيء أتنازل لك عنه ، وما دمت قد لجأت إلى المحكمة ، فلندع الأمر بيد العدالة ..السلام عليكم
وانصرف صالح غاضبا بعد أن أدرك أن أمله قد خاب ، فالحاج منصور هو هو لا يعرف للراجع سبيلا ولو كلفه حياته . وترك الحاج في ركن الجامع مطرقا واجما ، وأحس بمرارة الهزيمة وخيبة الرجاء ، ووجد نفسه أمام مأزق لا يجد منه منفذ إبرة . ثم انصرف إلى بيته يجر رجليه جرا ..ولم يستطع أن يتناول عشاءه ،ولا أن يعود إلى الجامع لصلاة العشاء ، وإنما ظل في غرفة السقيفة متكئا بمرفقه على الوسادة ، مسندا ظهره إلى الجدار ، يفرقع بين أصابعه حبات السبحة.وكان على هذه الحال حين دخل عليه عمار ، واستأذنه في أن يدخل عليه الجموعي ابن خال حورية،

وسعيد حفيد الحاج بشير من أجل زيارته والاطمئنان على صحته.

********** 25 **********

بعد التحية والسلام ، والسؤال عن الصحة والأحوال ، كان على الشبان أن يحسنوا الاستهلال ، أو ربما كان عليهم أن يدخلوا في الموضوع الذي جاؤوا من أجله دون أن يشعر الشيخ ،ويوهموه أن الحديث إنما كان عارضا غير مقصود .

لهذا كانوا يحاولون استدراج الشيخ ، ويتحينون الفرص ويبحثون عن السبيل المناسب الذي يصل بهم إلى هذا الموضوع الحرج،.

لكن الحاج منصور كان يدرك بذكائه الحاد ،أن لهذه الزيارة غرضا محددا ، لكنه لم يستطع التعرف عليه ، فكان يحاول أن يحثهم على الوصول إلى غرضهم بأسلوب لبق ،عندما يردد من حين لآخر كلمة الترحيب التي تستعمل أيضا للاستفسار عن سبب الحضور:

ـ مرحبا بكم ..مرحبا مرحبا

ثم سأل الجموعي قائلا :

ـ كيف وجدت ابنة عمتك؟

أجاب الجموعي :
ـ وجدتها في أحسن حال زاد الله من فضلك ...
ـ نحن لا نقوم إلا بما يمليه علينا الواجب يا ولدي ،
تدخل سعيد :
ـ بارك الله فيك يا عمي الحاج أنت تقوم بأكثر من الواجب .
تدخل عمار بذكاء :
ـ ومع ذلك فعمتي لم تقرر مصيرها بعد .
قال الحاج منصور:
ـ ماذا تعني يا عمار ؟
ـلم تقرر ما إذا كانت ستستقر هنا أم تعود إلى تونس .
ـ إن أقامت فمرحبا بها عند أهلها ، وإن رحلت فمصحوبة بالسلامة.
تدخل سعيد :
ـ لكني أظن أنها تعاني مشقة في العيش هناك
قال عمار :
ـ نعم ،،وخاصة بعد أن مرض صبيها.
قال الجموعي :
ـ فتراكمت عليها الديون..حتى رهنت بيتها .
تدخل الحاج منصور بلهجة حازمة :
ـ لن أتأخر عليها بشيء تطلبه مني ، ولو أنها شديدة الاستحياء ، ولا بأس أن تفوضكم بالنيابة عنها فأنتم أبناؤنا ..

قاطعه سعيد :
ـ لم تفوضنا لشيء ،،المسكينة تستحي حتى منا نحن .
تدخل الجموعي :
ـ ولا أحد يحرص على عمتي حورية مثل أخيها الكبير ، ولا لأحد يستطيع مساعدتها غيرك يا عمي الحاج.
ـ هل تقترحون مساعدة معينة نؤديها لحورية؟
قال عمار :
ـ عمتي ترغب في البقاء هنا ، والإقامة في البيت الذي تقيم فيه .
ـ هذا بسيط فهي مقيمة في البيت .
قال سعيد :
ـ إنها متعلقة به ..تقول إنه يحمل ذكريات طفولتها .
وأكمل الجموعي :
ـ وأنها ولدت فيه.
قال الحاج منصور متذمرا :
ـ فلتقم فيه ،بيت أخيها أو بيتها سيان .
قال سعيد بشيء من التردد :
ـ لكنها محرجة منك يا عمي الحاج.
وأردف الجموعي :
ـ تعتبر نفسها ضيفة عندك لا أكثر .
وأكمل سعيد :
ـ وترى أن ضيافتها طالت أكثر مما ينبغي .

قال الحاج كأنما يحاول التخلص من الموضوع برمته :
ـ لا حرج بين الأخ وأخته طالت الضيافة أم قصرت، قولوا لها أنني لا أعتبرها ضيفة ، إنما هي في بيتها .
قال الجموعي :
ـ أعطاك الله الصحة والعافية...هذا ما تريده عمتي حورية..تريد أن تكون في بيتها فعلا .
قال الحاج مصدوما :
ـ ماذا تعني ؟؟
تدخل سعيد بحرج شديد :
ـ إنه لا يقصد..نحن الذين نقترح ذلك.
سأل الحاج محاولا التثبت :
ـ ماذا تقترحون ؟ هاتوا من الأخير.
أجاب الجموعي متسرعا :
ـ نقترح أن تكون عمتي حورية في بيتها فعلا .
ـ لماذا لا تتحدثون بالصراحة ؟ لماذا المحاورة والمداورة ؟قلت لكم دعوا عمتكم حورية وشأنها ، لماذا تحشرون أنوفكم بيني وبينها ؟ هل طلبت منكم ذلك ؟
هكذا خاطب الحاج الشبان بحدة ، بعد أن أدرك ما يرمون إليه ،وكان ينتظر منهم الإجابة الشافية ، لكنهم سكتوا توقيرا للشيخ واحتراما لهيبته . وبعد فترة صمت ، رأى عمار أن يتدخل لحسم الموضوع:

ـ يا أبي أؤكد لك أن عمتي لم تكلف أحدا بشيء لكننا رأينا أن تتكرم عليها،وترفع من حرجها ، فتكتب لها البيت الصغير ، فنحن لا نستعمله إلا في الأفراح والمناسبات ، وهي متعلقة به تعلقا شديدا..كما انه لم يعد بوسعها العودة ... فشطر كبير من بيتها ينصرف لقضاء ديونها ، ولن نخسر شيئا عندما نكتب لها البيت ، بل سنقدم خدمة عظيمة لامرأة من الأسرة .

قال الحاج متذمرا

ـ ها أنا امنحها البيت لتقيم فيه إلى الأبد ، ولن يخرجها منه أحد مادمت حيا .. فهل ستخرج عمتك من البيت بعد أن تغيب عيناي يا عمار ؟

تمتم الجموعي وسعيد :

ـ أطال الله في عمرك يا عمي الحاج

وقال عمارة :

ـ من واجبنا أن نطمئنها على مستقبلها و مستقبل ابنها ، ثم إني لست وحيدا معي أختي وهي في كلفة رجل بعيد ووالدتي ..

قال الجموعي متسرعا مرة أخرى :

ـ ألا تقول إنها أختك يا عمي الحاج ؟

وأردف دون أن ينتظر إجابة :

ـ فالبيت إذن... أقل من حقها ..

وهنا غلى الدم في رأس الحاج منصور ، وتأهب للقيام فتناول خيزرانته من وسطها ورشقها في الأرض وقال بلهجة عنيفة : ـ

ـ من أنتم ؟ من تحسبون أنفسكم ..؟ أنجبناكم أمس ، فأتيتم اليوم لتعلمونها واجباتنا .. ((الجدي يعلم أمه الرضاعة)) صبرت عليكم كثيرا فتجاوزتم حدودكم .. لماذا تحشرون أنفسكم بين البصلة وقشرتها حورية أختي .. وأنا أتصرف معها بيني وبينها .. لا أجيز لأحد منكم أن يتدخل بيننا وعندما أريد أن أقدم لها شيئا : أقدمه بنفسي وعن طيبة خاطر ..

قاطعه الجموعي:

ـ يا عمي الحاج .. أصلح الله شأنك .. إن حورية أختك ولها نصيب من ميراث والدها .. إن الله لا يستحي من الحق ..

رد الحاج بسرعة وبغضب شديد:

ـ لا شأن لك .. لست ولي أمرها ..

حاول سعيد أن يسيطر على الحوار وأن يهدىء من حدته فكان يتدخل بين الحين بقوله :

ـ يا جماعة ..لا داعي للغضب .. لم نأت للخصام..يا الجموعي الله يهديك احترم عمي الحاج ..

لكنه فشل فشلا ذريعا .. فصوته يبدو منخفضا لأن صوتي الحاج والجموعي يعلوان أكثر فأكثر .

رد الجموعي بعنف على الحاج :

ـ بل أنا ولي أمرها .. أنا اعتبرها والدتي وستضطرني إلى رفع قضية للمطالبة بحقوقها ..
ـ ارفع قضية .. أو اضرب رأسك على الجدار
ـ لا تستهن بالأمر يا عمي الحاج ... عندي وثيقة تجعلك تجري وراء المحاكم بقية عمرك .
وبحركة سريعة ، خطف الجموعي الورقة من جيب سعيد ورماها في حجر الحاج منصور .. فتناولها الحاج ومزقها فتاتا ، ونهض على قدميه ، وهو يقول :
ـ ها هي وثيقتك الهامة ! !
فرد عليه الجموعي وهو قائم يتأهب للانصراف :
ـ لا عليك يا عمي الحاج ... عندي منها نسخ كثيرة

********** 26 **********

نخلة الغرس المسنة في التربة الحرة ، تمد جذورها إلى مستوى المياه الباطنية ، فتظل مرتوية ، وتظل ضخمة قوية عتيدة مطاولة عنان السماء ، وعندما ينزل عنها مستوى المياه بصورة مفاجئة تتغير حالتها بصورة مفاجئة فكلما ازدادت جفافا ، ازدادت تثاقلا إلى الأرض وازدادت اصفرارا وذبولا ، لكنها مع ذلك تظل مطاولة عنان السماء ، ولا ترضى أن تنزل إلى الأرض إلا جذاذا ، ذلك أو قريبا من ذلك ، ما كان يشعر به الحاج منصور في تلك الليلة الحالكة بعد أن

خرج عنه الشبان ، وتركوه لهمومه، ولظلمة الليل تتفقان على قلبه الكليل الذي يتهاوى ويتهاوى وتسحقانه سحقا ولم يعد يستطيع التفكير ولم يعد يستطيع أن يدرك ما آل إليه من سوء المصير .

ما باله ماذا دهاه ؟ إنه الحاج منصور الذي عاش قويا ، وفرض شخصيته على كل الناس ، كل سكان القرية يسبحون بحمده ،كل الناس يهابونه عندما يتكلم وعندما يتحرك , ما بال الأيام قد قلبت له ظهر المجن على حين غرة منه ، لا..لا لن ينهزم بسبب تطاول هؤلاء الشبان الحمقى ..لا ..بل القضية ليست الشبان ..إنه الزمن ولا شيء غير الزمن الأيام تدير له ظهرها والليالي تحاصره بظلمتها ... ومع ذلك قرر ألا ينهزم أن يصر على التماسك .. ألا يسقط على الأرض ...إلا جذاذا . ولهذا ظل جالسا مسندا ظهره إلى الجدار ، مادا رجليه أمامه ،يفرقع حبات السبحة ، يحرك شفتيه بكلمات مفرغة من المعاني ..أو أن همومه هي التي أفرغت الكلمات من معانيها وحلت محلها .

أحس الحاج منصور بثقل شديد على كاهله وإرهاق مضني فلم يدر كيف يزيل عن نفسه هذه الهموم ، ويحط عن كاهله هذه الأفكار .فأغمض عينيه طالبا النعاس ، فإذا به يغفو إغفاءة قصيرة أو أنه ظنها قصيرة فتح بعدها جفنيه المثقلتين فوجد نفسه في حال غير التي كان عليها.

أحس بارتخاء يعم أطرافه ، وبهدوء نفسي ما كان يشعر به وذهبت عنه كل الهواجس التي كانت تؤرقه ، حتى عجب من

هذه الراحة العميقة التي تعمه ولم يكن يتوقع أن كل الهموم والهواجس والأحزان تصل إلى ذروتها فتنقلب استقرارا وهدوءا وراحة أقرب إلى السعادة ، وعندئد فقط ،اضطجع ونام نوما عميقا أسلمه بسرعة إلى نور الصبح ، حين تناهى إلى سمعه صوت المؤذن : الصلاة خير من النوم ..

فنفض عن نفسه كل ما يشغل باله ، وقام على قدميه المثقلتين ، فإذا بالحاجة تبر تفتح باب السقيفة وتناوله إناء الماء الساخن وتحييه بصوت هادئ جميل مشوب بنبرة النوم تسلل إلى قلبه فأضاف إلى سعادته سعادة أخرى ، وتناول الإناء ودعا لها بصدر منشرح:

ـ الله يخلف عليك يا الحاجة

وعندما وصل إلى المسجد ، كان كل شيء يجري على المألوف والعادة ،لكن الحاج كان يحس من عمقه أن الدنيا تغيرت ،أو كأنها تغيرت ،فالوجوه تفيض بشرا ، والجامع يفيض نورا على نور ، والإيمان العميق يعمر القلوب .

صلى الفجر وعقد حلقة الذكر ، وسلم على الجميع ، كما يفعل كل مرة بعد انقضاء حلقة الذكر ،لكن السلام هذه المرة كان جديدا والمصافحة كانت تواصلا من القلب إلى القلب ، يمحّي على إثرها كل ما يعلق بالقلوب من إحن سببها حطام الدنيا .

وصل البيت وأيقظ الجميع ، ودعاهم إلى تناول فطور الصباح معه في غرفة السقيفة ، وبدأ أعضاء أسرة الشيخ يتوافدون على غرفة السقيفة.

جاء عمار ، ثم جاءت الحاجة تبر تحمل بين ذراعيها الوليد الصغير بشير ،طلب منها أن تناوله إياه ، وضعه في حجره واخذ يداعبه ، ويطرب قلبه بمناغاته وابتسامته الملائكية ، ثم جاءت رقية زوجة عمار تحمل صينية كبيرة ،عليها أباريق الشاي والقهوة ،واللبن وخبز الرقاق ، وضعت الصينية وكان الجميع يهمون بالشروع في الأكل ، لكن الحاج أمرهم بالتريث أمرا صارما فزع عمار الذي مد يده إلى إبريق القهوة سأل الحاج سؤالا فاجأ الجميع :

ـ أين زهرة ؟

فأجابته الحاجة تبر :

ـ ما بالك اليوم يا الحاج ؟ زهرة في بيتها رب يهنيها

رد الحاج بنبرة تقريرية حاسمة :

ـ اليوم تفطر معنا هنا ، اذهب إليها وادعها يا عمار ،

وما كان في وسع عمار إلا أن ينهض من مكانه متبرما من هذا السلوك الغريب الذي لم يألفه الحاج ولا ألفته أسرته ، وفتح عمار الباب ليخرج من السقيفة ، ويسرع لدعوة أخته زهرة ، لكن الحاج وبلهجته الحاسمة يخاطبه من جديد:

ـ تمهل ! !

فيلتفت عمار مذعورا ، ينتظر أوامر والده .

ـ في طريقك إلى أختك ، مر على عمتك حورية ، وادعها إلينا أيضا.

كان الجميع ، ينظرون إلى الحاج وهم في حيرة من أمره ،لكن أحدا لم يجرؤ على أن يسأله في ذلك .

**** 26 *****

باتت حورية على فراش من الشوك فقد سمعت بالنزاع الذي نشب بين أخيها الحاج منصور وبين الشاب الجموعي ا بن خالها . لقد أنّبت الجموعي بشدة ، لأنه أوقعها في موقف حرج ، ولم تعد تدري ما تصنع ، وعلى الرغم من محاولات الشبان لطمأنتها إلا أنها بكت وسكبت دموعا غزيرة ؛ لاشك أن ما فعله الشبان سيثير غضب أخيها ، ولا شك أن غضبه سيسبب لها متاعب كثيرة ، ليست مستعدة لتحملها لقد حاول الجموعي تهدئتها ، ووعدها بأن يغتنم أقرب فرصة ليعتذر للحاج منصور ، ويؤكد له أن لا ذنب لحورية فيما حصل من خلاف

لكنها مع ذلك تدرك قسوة أخيها حين يغضب ، فقد يفسد عليها كل شيء ، وقد لا يتورع عن طردها في ثورة من ثوراته الجنونية ، وبسبب ذلك باتت في أسوء حال .

وكانت ستذهب الى الحاج منذ البارحة حين علمت بأمر النزاع الكلامي الحاد ، وستسكب دموعها بين يدي أخيها ، وتتضرع إليه بألا يشغل باله بهؤلاء الصبيان الطائشين ، وتصرفاتهم العشوائية ، وألا يترك في قلبه مما حدث شيئا .

غير أن الليل كان قد تأخر ، ويكون الشيخ قد استسلم للنوم ،فلا موجب إذن لتنغيص منامه ،لهذا أجلت حورية ذلك إلى صبيحة اليوم .

وبسب أن هموم البارحة أقضت مضجعها ، فلم يصرعها النوم إلا بعد أن مضى الشطر الأوفر من الليل ، ولم يفك عنها إلا بعد أن تسربت أشعة الشمس إلى غرفتها ، حتى كانت تغمرها .

نفضت حورية عن نفسها آثار النوم الثقيل ، فصلت الفجر وناولت ابنها كأسا من اللبن ، وكانت ستتأهب للخروج والذهاب إلى بيت أخيها ، مع شعورها الشديد بالحرج والخوف أيضا .

سمعت طرقا بالباب فهرعت إليه، ولم تفاجأ برؤية عمار ، فقد اعتاد زيارتها في كل وقت ، لكن عمار حيى تحية مقتضبة ، ولم ينتظر رد حورية ، ولم يستجب لدعوتها بالدخول ، بل ألقى في روعها كلمة مبتورة بترت ركبتيها ، ودق قلبها بعنف ، حتى كاد ينفلت من بين ضلوعها ، ومضى عمار لكن الكلمة بقيت تتردد في مسمعها :

ـ والدي يدعوك للفطور ..الآن.

هذا أمر غير معهود ولا شك أن وراءه شيء بالغ الأهمية ، يا ويحي لو أن منصور لا يزال ثائرا من تطاول ذلك الشاب الغر عليه ، مسكين الجموعي أساء إلي من حيث أراد الإحسان .

ولم تتردد كثيرا بل وضعت لحافها على رأسها ، وخرجت مسرعة الخطى ، وكأن شعورا خفيا يدفعها بقوة لتقف بنفسها على ما تخبئه هذه الصبيحة من مفاجآت .

وصلت حورية إلى البيت ، وتقدمت إلى غرفة السقيفة في ارتباك شديد ، لكنها سمعت لغطا وجلبة يصدران من غرفة السقيفة فشعرت بشيء من الارتياح ، وعندما تخطت العتبة لمحت أخاها يتصدر المجلس ، وقد اتكأ بمرفقه على الوسادة ، ومدّ إحدى ساقيه ، وزرفع ركبة الأخرى ووضع عليها يده ممسكة بالسبحة ، وكان يتجول بنظره بين الحاضرين ، ويمعن النظر في الطفل الملائكة بشير ، فيزيد انشراحا ، ويفيض وجهه بشاشة .

عندئذ هدأت نفس حورية وأحست بارتياح لم تكن تنتظره ،وأطلقت صوتها الرنان بتحية الصباح ،فرد عليها الجميع ، وجلس الحاج ودعاها إلى قربه فاقتربت منه ولسانها يلهج بالدعاء والثناء كما هي عادتها دائما .

ولما استوت في جلستها قُدِّم إليها كوبٌ من اللبن،ووضعت أمامها صينية الرقاق .وراحت تكلم هذا مرة وتسأل عن ذاك ،وتسأل زهرة عن حالها وحال زوجها وأبنائها ،،ثم مر بخاطرها ما وقع البارحة ، فانحنت مقربة رأسها من رأس أخيها وهمست في أذنه :

ـ إن شاء الله ، لا يكون قد بقي شيء في بالك مما فعل ((الذر)) سامحهم يا الحاج إنهم لا يزالون صغارا ، ولا يقدرون الأمور حق قدرها .

مرت سحابة سريعة على وجه الحاج منصور ،ثم ابتسم وقال :

ـ لا عليك يا حورية ..هيهات أن يوقع هؤلاء الشبان بين الأخ وأخته

وعندئذ فقط اطمأنت حورية ، وحمدت الله على السلامة.

رفعت صينية الفطور ، وبقي الشاي وانفض المجلس ، أما رقية أم بشير فقد انصرفت إلى أشغالها المنزلية ، وأما الحاجة تبر فقد خرجت إلى فناء البيت ثم هرعت الى الزريبة لتتفقد العنزات ، وهم عمار أن ينهض فطلب منه أن يتمهل ، كما خرجت زهرة وأطفالها إلى فناء البيت ، ولم يبق في بيت السقيفة إلا الحاج منصور وحورية وعمار .

استوى الشيخ جالسا وقال لابنه :

ـ اذهب إلى الطالب العربي والحاج عثمان وادعهما ...قل لهما إن والدي يدعوكما لأمر ضروري .

لم يسأل عمار عن طبيعة هذا الأمر الضروري، إنما نهض قائما وخرج من الغرفة .

توجه الحاج نحو حورية ، وراح يكلمها بلهجة رزينة وصوت وقور :

ـ ((يا حورية يا بنت والدي ، الله يعلم ما يكن لك قلبي من مشاعر المحبة والاحترام والتقدير ..وهذا أمر طبيعي ، فكيف لا يحب الأخ شقيقته من صلب والده ،،،صحيح أنك لم تتربي معنا ، ولكنك ابنة الحاج مبروك بن عمارة ...لشد ما يحز في نفسي عندما أذكر سنوات غربتك الطويلة ، وما أكثر ما يؤلمني حين أذكر أننا ظلمناك ووالدتك لفترة طويلة ،لقد تغربت طويلا يا حورية وعانيت كثيرا كما عانت والدتك رحمها الله كل ذلك في غفلة منا ، وتحن أهلك ولم تتحرك في عروقنا الغيرة على القرابة والدم .هناك أمور كثيرة تفوت الانسان في زحمة الحياة وغمرة التسابق إلى حطام الدنيا ..

حطام الدنيا كلها لا يساوي شيئا ،،لا يساوي قطرة دم ،ولا يساوي صدرا حنونا ، ولا يساوي كلمة صادقة نابعة من قلب أبيض .

يا حورية إن زيف الحياة كثيرا ما يحجب أعيننا عن رؤية الحقائق الدائمة ،،ولذلك يجب أن تكون قلوبنا بيضاء ، حتى لا يحجب الزيف أعيننا ، وحتى نرى الحقائق الدائمة .

الله ..هو أعظم حقيقة..أزلية ..سرمدية ..لكننا نتناساه كثيرا في زحمة الأباطيل ..لا نستطيع أن نضع الله نصب أعيننا إلا إذا صفت قلوبنا ،من الإحن ولأحقاد وزيف الحياة الدنيا .صفاء القلوب يا حورية هو التسامح ، ولا شيء غير التسامح .

سأحاول أن أرد إليك حقوقك المادية ،لكنني لا أستطيع أن أمسح عن قلبك ما علق به في سنوات الغربة والحرمان والمعاناة .

لكنك تستطيعين ذلك لو طهرت قلبك وقربت نفسك من الله تعالى ...صفّي قلبك بنور العبادة ،، بنور الله وستكونين أسعد ،، لن يكون قلبك مثقلا بالإحن والأحقاد .بسبب الدنيا ،،وستكونين أكثر سعادة .))

كل ذلك وحورية تستمع إلى أخيها مطأطئة رأسها وتومئ بين الحين والحين .معربة عن التأييد والتوقير ..لكنها وفي كل ذلك لم تستطع أن تنبس ببنت شفة من فرط الارتباك ،،والحيرة ،،،والخجل .

بعد فترة صمت لم تطل ، دخل عمار ، و قال لوالده إن ((نعم سيدي)) والحاج عثمان ،بالباب، همت حورية بالنهوض ، لكن الحاج أشار إليها بالبقاء ،وقال :

ـ ضعي لحافك على رأسك وابقي معنا لأن الأمر يعنيك .

ثم أمر عمارا ان يحضر ورقة وقلما .

********* ******* *******

** 27 **

ندم صالح على ما بدر منه تجاه الحاج ندما شديدا أقض مضجعه ، فقد كان الشيخ يكلمه بلهجة حزينة متوسلة ، وكان عليه أن يتعاطف مع الشيخ ويستجيب له ولو بشيء من المجاملة لكنه كان فظا غليظا ، صرفه بمنتهى القسوة

والفظاظة ،لم يراع شيخوخته وعجزه ..ولا حرمة الجوار ..ولا عهد الصداقة مع والده .لذلك تقلّب صالح في فراشه ليلة البارحة ،فكر طويلا فيما عساه أن يفعل،، الشيخ طاعن في السن ،،،علامات الشيخوخة والضعف بادية عليه ، إن كلامه عشية اليوم يثير الشفقة والرحمة ..لعن الله الدنيا ..التي تجعل القلوب قاسية ..غليظة ،،جافة ،،ماذا عساه أن يفعل ؟هل يتنازل للشيخ وينزل عند حكمه ، ويضيع كل الجهود والمال الذي أنفقه للبناء ،،والحماس الذي تأجج في صدره وفي صدور شبان القرية ؟ كل ذلك يذهب سدى ؟ ولكن لماذا كل ذلك ؟ من أجل قطعة أرض صغيرة في النخلة ، في قعر الدنيا ، ما قيمتها ؟؟ وحتى لو كانت ذات قيمة ؟ هل تساوي حرمة الجوار ؟ هل تساوي مراعاة وصية والده الذي كان دائما يوصيه خيرا بجيرانه وبخاصة صديقه الحاج منصور؟

حتى لو كانت ذات قيمة عظيمة ، هل تساوي ألم الجرح الذي سببه للشيخ بسبب سلوكه الفظ الغليظ ؟ هل تساوي قلبا طاهرا نقيا يفيض منه التسامح؟ هل تساوي وقفة ذلّ يقفها أمام قبر والده في مقبرة البياضة عندما يزعزعه ضميره من الداخل ؟..عندما لا يراعي وصية والده في حق صديقه؟ لا ..لا..وألف لا .

وهكذا وصل صالح بتفكيره إلى أن سلوكه في هذه القضية من أولها إلى آخرها كان خطأ في خطإ ..تحركه غرائز دنيئة ، وليس وعواطف سامية نبيلة .

وعجب صالح من نفسه لأول مرة ، فقد تكشفت له نفسه عن وجه آخر لم يعهده فيها .

وهكذا قرر صالح بينه وبين نفسه أن يقمع غريزته الدنيئة الجامحة ،،قرر أن يعود للحاج ويعتذر له وينزل عند حكمه .

وعندما وصل إلى هذا القرار فقط ، استطاع أن ينام نوما هادئا مطمئنا .

وعندما استيقظ كان قد نسي كل شيء ..ومضى يسعى لرزقه كما تعود أن يفعل ...ونسي كل شيء يتعلق بالحاج منصور في غمرة البحث عن الرغيف ، وعاد حوالي منتصف النهار إلى النخلة ،، ولم يكن معه ركاب فخلا إلى نفسه ، وعندئذ فقط تذكر ما حدث البارحة ..وتذكر القرار الذي اتخذه .وتأسف أن لم ينفذه ،ولام نفسه لوما شديدا ، وقرر مرة ثانية ألا يذهب إلى بيته إلا بعد أن يصفي نفسه من جهة الشيخ ، ويريح قلبه من دنس الهواجس الليلية الممضّة .

قرر أن يتوجه رأسا إلى بيت الحاج منصور ..

لكنه عندما دخل القرية ، أحس إحساسا غريبا غامضا ، مزعجا ، ماذا ؟ لماذا ؟؟ ثم استطاع أن يلحظ أن ذلك الإحساس ، يحرك القرية في الخارج ،، القرية كلها تبدو مفعمة بذلك الإحساس ،بذلك القلق الجو في القرية مكهرب ، الناس كلهم مسرعو الخطى، لا يلتفتون يمينا ولا

شمالا. حيى واحدا ، اثنين ، ثلاثة . لم ينتبه إليه أحد ، ولم يرد على تحيته أحد .

النساء يخرجن من البيوت مسرعات الخطى ملهوفات ، بعضهن لم يجدن الوقت حتى ليضعن لحوفهن على رؤوسهن ، وبدأ الأمر يتضح جليا . لا شك أن الأمر خطير للغاية .توضح الأمر جيدا .

امرأة ترفع يديها إلى السماء ..فيسقط لحافها ، وترفع عقيرتها فتملأ الدنيا جزعا :

ـ يا شووووومي !

وترد عليها أخرى بصوت مشابه :

ـ أووووك عني ! !

وقف صالح مشدوها في ساحة القرية كأنما شلت رجلاه عن الحركة ، وشل لسانه عن السؤال :

ـ ماذا ؟ ماذا حدث ؟

ولم يتطلب منه موقفه ذاك وقتا طويلا ليفهم ..

الناس كلهم يهرعون إلى بيت واحد ..لا شك أن الفاجعة حلت به .

إنه بيت الحاج منصور ..ثم راح يجر رجليه جرا إلى بيته ، ووجد والدته الصافية وكأنما علمت الخبر لتوها ،وضعت قفى يدها على جبينها ، وصاحت :

ـ أووك ...ما أبشع الدنيا ... ! ! ! !

وسألها بلهفة كبرى ،وكأنما يتثبت الخبر :

ـ من ؟ من؟ من ؟؟؟
وأجابته بسرعة وهي تضع لحافها على رأسها وتخرج من البيت :
ـ الحاج ..الحاج ..الدايم ربي ..
أحس صالح كأن تيارا يسري في أوصاله من أم رأسه إلى أخمص قدميه .وشعر كأن صدره يضيق ، يضيق ، يضيق ..وطفقت الدموع تنهمر غزيرة على خديه ، لكنها لم تسعفه لينفس عن صدره ، فأغلق عليه غرفة السقيفة ،وراح يشهق ، يشهق ، من شدة الغيظ لا من شدة الحزن .
لقد بكى صالح ..ولم يكن بكاؤه حزنا على الحاج منصور بقدر ما كان حزنا على نفسه ،،ندما على أنه لم ينه الأمر بينه وبين جاره بالمعروف .
ها هو الحاج يصل إلى صديقه وجاره ، ولا شك أنه مغتاظ لما بدر مني البارحة في ركن المسجد ، ولا شك أنه سيشكو ذلك مني إلى صديقه . وعندئذ لا آمن على نفسي غضب والدي وما ينجم عنه من عسر الحياة و..اللهم اغفر وارحم ...هكذا كان صالح يفكر بينه وبين نفسه ، وعندما وصل به تفكيره إلى هذا الحد ، ضرب بيده على ناصيته ، وأجهش بالبكاء من جديد .

***28* * *

جموع غفيرة من ا لنا س يحتشدون في الشارع بين مسجد القرية وبين بيت الحاج منصور ، ينتظرون صلاة العصر ،

وبعدها مباشرة تشييع الجنازة إلى مقبرة البياضة بلا شك ؛ فالسيارات والشاحنات تحتشد أيضا في ساحة القرية ، الحزن يخيم على كل مكان ولا تكاد تسمع إلا همهمات مبتورة بين الحين والحين .

- هذه الدنيا الفانية
- ملعون من يجعل منها رأس مال
- الدايم ربي
- الحاج منصور وما أدراك
- أستغفر الله
- إنا لله وإنا إليه راجعون
- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
- الله يرحمه
- ويوسع عليه
- كان رجلا
- كان فحلا
- كان كريما سخيا
- كان زاوية
- لم تكن سقيفته تخلو من الضيوف
- الدايم ربي
- ....
- الميت كي يموت يطوالو رجليه
- خاف ربي يا راجل
- الموت يطارد الجميع

ـ اذكروا موتاكم بخير
ـ البارحة فقط كان في صحة جيدة ، وكان يصول ويجول في الواحة
ـ بل اليوم ..هذا الصباح ، صلى صلاة الفجر في المسجد ..يقال إنه ودع جماعة المسجد ..واستسمحهم
ـ أنا سمعت انه دعا إليه هذا الصباح ((نعم سيدي))والحاج عثمان .
ـ وأخبرهم بكل شيء
ـ أخبرهم بأنه سيموت ؟
ـ هذا غير معقول ..كيف علم بذلك وهو في صحة جيدة
ـ هذا أكيد ، يقال إنّه قسّم التركة بين ابنيه وأخته التونسية ..هذا الصباح
ـ كل الذين يموتون ، يقال لنا بعدذلك أنهم علموا بموتهم .
ـ هذا أكيد .
ـ نحن نعلم بآجالنا مسبقا ..
ـ لماذا؟
ـ لكي نستعد للرحيل
ـ لكي نصفي قلوبنا
ـ نعم ،،وإذا كان علينا ديون نردها إلى أصحابها .
وفي هذه الآونة ، اشتد صراخ النساء ، وكن يكررن العبارة نفسها بتسارع رهيب ، وبالرتم نفسه دون ملل :
ـ ها شومي ...ها شومي ...ها شومي...

لاشك أن النعش يخرج من السقيفة إلى المسجد .

ـ أعوذ بالله !

ـ النساء ناقصات عقل ودين

ـ الميت يتعذب عندما يصرخن عليه

ـ إنه يسمع الصراخ

ـ يسمع وهو ميت؟ !

ـ نعم الآن هو يسمع صراخهن

ـ نعم .. ويتألم

وعندما أقيمت صلاة الظهر ، احتشد الجميع في المسجد وفي رحابه، وخلت القرية إلا من حلقة أطفال في ساحة القرية ، لم يفوتوا الفرصة، هم أيضا ليخوضوا في هذا الحدث الأليم ..

ـ الميت يحيى

ـ نعم يحيى يوم القيامة

ـ لا ،، يحيى اليوم .

ـ اليوم هو يوم القيامة

ـ نعم ..بالنسبة للحاج منصور

ـ يكفي ،،،هذه بلاهة ،

ـ يوم القيامة بعد مليون مليون عام !

ـ أنا قلت لك يحيى اليوم .

ـ هكذا قال ((نعم سيدي))

ـ إنه يحيى يوم القيامة ، يا أبله ! !
ـ لا بل يحيى اليوم ..في قبره
ـ يكفي من الكذب
ـ والله ، ،، أقسم بقبة الجامع .
ـ أنا أيضا سمعت هكذا
ـ عندما يدفنه الناس وينصرفون ، يحيى .
ـ لماذا لا يعود إلى بيته ؟؟
ـ ها ،،هاها ،،هاهاها،،،ها...
ـ إنه يجلس فيضرب سقف القبر رأسه ، فيقول متنا والموت حق .
ـ نعم أنا أيضا سمعت هكذا ،،ثم يأتيه عزرائيل ..
ـ نعم عزرائيل ،،يتوكأ على أسنانه !
ـ يا لطيف ،،،أسنانه طويلة ؟
ـ على شكل عكاز ..
ـ أعوذ بالله !
ـ فيقول له من ربك ؟
ـ فإذا كان من أهل الخير يقول له الله ربي ..وإذا كان من أهل الشر يقول له أنت ربي ، فيضربه ضربة قوية ،يدخله في بطن الأرض .
ـ الحاج منصور من أهل الخير
ـ نعم سيقول له الله ربي
ـ لا بل من أهل الشر

ـ لا بل من أهل الخير ..

*****29****

كان سعيد قد سمع بالفاجعة الأليمة ،،لذلك توجه مباشرة إلى البياضة ، صلى العصر في جامع سيدي العيد ، ومكث ينتظر وصول الجنازة ، لأنه يعلم جيدا أن رجلا في مكانة الحاج منصور لا يكون دفنه إلا في هذه المقبرة المرموقة ..ومع ذلك فقد تثبت من الأمر حين وصل إلى الجامع ، وجد المسجد يغص بالمصلين على غير العادة ،،فسأل فقيل له أن شيخا من النخلة توفي اليوم ، وسيدفن في هذه المقبرة المقدسة .

وجاء موكب الجنازة من السيارات المتتابعة ،،واحتشد الناس في

ساحة المقبرة وفي ساحة المسجد وفي الطريق بين هذه وذاك .

أدخل النعش إلى ساحة المسجد لتصلى عليه صلاة الجنازة ..ثم نقل إلى المقبرة بينما بقيت مجموعة من الشيوخ ، يتصدرهم الشيخ محمد إمام مسجد سيدي العيد وعن يمينه وعن شماله مجموعة أخرى من الطلبة ، تعرف منهم على (نعم سيدي) إمام مسجد النخلة .

مكثوا يتلون سورة يس فمكث سعيد معهم ، لا بد أن ينتظر فراغ الناس من الجنازة حتى يتسنى له الذهاب إلى النخلة لتعزية صديقه عمار .

عندما انتهى الناس من دفن الجنازة بللوا القبر ثم نفضوا أيديهم من ترابه ، ودعي الطلبة ليتخذوا حلقة كبيرة حول القبر ، ويتلون تلاوات وأدعية مألوفة في مثل هذه المناسبة.

وعندما تحلق الناس كان سعيد على مقربة من القبر الجديد ، وشرع الأئمة يتلون:

ـ ((إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك هم عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ...))

لكن سعيدا انتبه فجأة إلى أمر بالغ الأهمية ،،وكانت دهشته عظيمة

...كان القبر الجديد المبلل هو نفسه القبر المزيف ، وهو نفسه المكان

الخالي الذي كان إلى جانب قبر جده الحاج بشير ! ! ! !

*** **** ****

جلس عمار يتلقى التعازي في بيت السيدة حورية ..حتى كاد ينقضي الشطر الأخير من الليل .وأخذت أعداد المعزين في التناقص .

وأخيرا لم يبق في رفقته إلا سعيد والجموعي وصالح ومجموعة قليلة من شباب النخلة .

قال أحد الشبان معرّضا بصالح :

ـ عظم الله أجرك في جارك ،،يا صالح .
ـ لا أراك الله سوءا مع أني أعرف أنك لست جادا ،ومع ذلك أؤكد لك أنني حزين على الحاج ،،ومغتاظ من نفسي .
ـ لماذا ؟ لأنك خاصمته ؟؟
ـ بل لأني كنت أنوي مصالحته،،قررت أن أزوره اليوم وأعتذر له ، وأنزل عند رغبته ،،ولكن الشيطان ،،لعنه الله ،،أنساني ذلك .
تكلم عمار بصوت حزين :
ـ آخر ما قال لي عندما كنت أهم بالخروج ((لا تنس أن تذهب غدا إلى الوكيل وتطلب منه سحب الدعوة ضد أبناء الحاج بشير)) ، ثم قال لي: لا تبتعد كثيرا ،،،وكأنه تنبأ بما سيحدث له.
أجهش صالح بالبكاء عندما علم أن جاره الحاج منصور أوصى بالتراجع عن الدعوى التي كان قد رفعها ضده .
بكى صالح بمرارة وكأنما أحس لأول مرة أنه صغير حقير
...لعن الله الدنيا ! !
وأجهش عمار بالبكاء عندما رأى صالحا يبكي ، فقال أحد الحاضرين ، ساخرا:
ـ عيب ..رجال ويبكون ؟! !
اهتز سعيد غاضبا وقد اغرورقت عيناه بالدموع :
ـ لماذا ؟؟ ألا ينبغي للرجال أن تكون لهم قلوب ؟! !

***

بعد ثلاثة أيام من الفاجعة ، سمعت نصف زغرودة في بيت الحاج بشير أطلت الصافية على ابنها صالح ، الذي كان يجلس في غرفة السقيفة :

ـ ولد ..ولد ..مبروك يا ابني ..رب يجعله من حملة الستين ... ماذا نسميه ؟

ـ الله يبارك فيك يا أمي ..يكبر في حضنك ..نسميه على بركة الله منصور ..

وأقبلت الحاجة تبر وعلمت الخبر ، وعلمت أن الوليد سمي على بركة الله منصور ، فأرسلت زغرودة كاملة مطوّلة .

ـ أوروروروروري ! ! ! !

انتهت في الرقيبة :

6 1/03/93

....
....

أحمـد زغب

مقـبرة الـبياضة

(روايـة)